THE LIBRARIES

COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY

نظرات في زجل الموصل

عبد الحليم اللاوند

عبد الحليم اللاوند

نظـــرة في زجل الموصـــل

ودراسة تحليليـــة لزجل

عبـــو المحمد عـــلي

مطبعة الجمهورية - الموصل

PJ
8390
.L39

PJ
7849
.A42
Z75
c.1

الاهـــداء

الى كل انسان
يعيش الصدق . . ولا يتعامل مـع الغش
ويشعل ولـو قنديلا واحـــداً في دروب
الآخرين

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

خطرت لي فكرة جمع الشعر النعبي الموصلي ودراسته حين ازمعت السفر الى القاهرة للحصول على شهادة الماجستير من جامعتها ، وقد قبلت فعلا فيها ، ولكـــن بعض الظروف حالت دون التوفر على هذه الدراسة فضربت عنها صفحاً ، وفي اثناء ما كنت عقدت العزم عليه اتصلت ببعض السادة الذين عرفت فيهم تتبعاً لهذا اللون من التراث الشعبي ، فاستهواني بشكل خاص عبو المحمد علي ، فقد رأيت فيه منزعاً يختلف كل الاختلاف عمن عاصروه او سبقوه ، سواء من حيث معتقده في الحيـاة أو من حيث ممارسته للحياة من خلال هذا المعتقد ، ولذلك وقفت عنده وقفة طويلة او بالاحرى قصرت البحث عليه بعدما ابعدت من ذهني فكرة الماجستير .

ولما كانت تحت يدي المادة التي تمكنني من دراسته فقد شرعت بكتابة سلسلة من المقالات نشرتها في جريدة فتى العرب ، ولم يكن في النية جمعها على شكل كتيب حتى رأيت ان هذه ستنسى بعد حين ان لم تجمع ، أضف الى ذلك ان الجريدة وقعت في اخطاء كثيرة عند النشر ، لذلك كله رأيت جمع تلك المقالات لتكون في يدي اولئك الذين يعنيهم هذا اللون من التراث ، ولتلقي ضوءاً على فترة من فترات الموصل تقدر بحوالي خمسين سنة .

كما لم آل جهدا في تتبع بعض عادات اهل الموصل كماخبرتها او سمعتها ومن

خلال الازجال الشعبية المغناة في الافراح او الاحزان او النقد الاجتماعي وأشرت الى تقصير الزجالين في عدم النظم بلهجة الموصل الدارجة وأسبابها ، واستعنت في بعض الأحيان بالامثال الشعبية الموصلية ، وقد اكون في ذلك اول من يكتب في موضوع شعبي يخص الموصل من خلال رجل مغمور ولكنه مغامر تحاشاه جميع الناس .

لا يفوتني في هذه المقدمة ان اشير الى ما قدمه إلي السيد عزيز مال الله من مجموعة موالات عبو المحمد علي والى المرحوم السيد محمد حنتوش الذي كان يزورني في داري كلما طلبت اليه ذلك فألى السيد عزيز أجزل الشكر والرحمة الواسعة على روح السيد حنتوش الطيبة لما بذله من جميل .

عبد الحليم اللاوند

٩٦٨/١٢/٢٠

نظرة عامة في زجل الموصل

نظرة عامة

قد لا يكون تناول الشعر الشعبي مستساغا ، وقد يؤخذ على مـن يتناوله بتقييم فني انه يريد تكرس العامية واصطناعها لغة ، او يؤخذ عليه على الاقل انه يجنح الى الادنى من الادب وفي اللغة الفصحى من الشعر والادب ما يغني عن تناول الادب الشعبي ، ولست من دعاة العامية بل قد أكون عدوا من ألد اعداء القائلين بها ، ولكن العامية كما يلاحظ اليوم تكاد تنهزم امام اللغة الفصحى بما صار لها مـن انتشار واسع ، فالتعليم والبث الاعلامي على مختلف اجهزته بها حتى اصبح رجل الشارع يعي من اخبار الاذاعة وتعليق الصحافة ما يطمئن القلب الى ان اللغة الفصحى بخـير وعافية ، وهي تفرض نفسها ضد العامية فرضا كل يوم حتى بات واضحا كم هو الفرق بين عامية اليوم وعامية الامس . فالعامية تتطور كأي كائن حي وفي تطورها لا تريد ان تصبح لغة منفصلة عن اللغة الفصحى وانما تريد اللحاق بركابها ، واخال انها تحاول الاندماج بها ؛ وليست القضية سوى زمن يمر لتصبح العامية فصيحة او أقرب الى الفصيحة من لغة اليوم ، فالقرآن الكريم وفهمه وقراءته وتلاوته رهين بتعلم اللغة الفصحى والنشريات على مختلف مستوياتها تحتاج الى سوق تنفق بها . وليس أفضل من اللغة الفصحى وتكريس استخدامها سوقاً لمن يكتب او ينشر او يبحث اوينقب ، وتجارة الكتب والمجلات أصبحت تجارة قائمة بذاتها ، فالكاتب لا يكتب من أجل أن يقرأه حفنة من القراء ، والكاتب لا يدون كتاباً يبيعه الى افراد معدودين على الاصابع ، والمطبعة لا تطبع إلا لآلاف القراء لتسد نفقات العاملين بها ، ولـذلك كانت اللغة الفصحى اضافة الى ما لها من كيان ديني يحفظها وينميها ويسـد الطريق

امام من يجترأ عليها بدعوى ضالة او شبهة باطلة اصبحت لغة تجارية ، اي ان ثقافة المتعلم لا تكمل إلا بها ، لانها الوعاء الذي يلم اشتات العلوم والمعارف ، ويكتب بها كل من تعلم بالقلم حرفاً .

هذا وان تعدد اللهجات العامية في القطر الواحد يجعل من المستحيل اصطناع العامية فى القطر نفسه لغة دولة دون ان ترافقها لغات ولهجات عامية اخرى . وإلا فالعامية البغدادية تختلف كل الاختلاف عن لغة الموصل ، وهما تختلفان عن لغة تكريت كما تفترق لغة العمارة عن لغة بغداد وهكذا . . .

إذن فاللغة الفصحى ستبقى وستأخذ بخناق العامية وتطاردها في كل زاوية وكل بيت حتى تختفي او تستقيم قناتها كما تريد وستذهب كل أباطيل دعاة العامية عصف الريح ، ان الشعب لمن يريد تزويده بالمعرفة لا يعييه ان يعلمه لغته وان يعطيه من هذه اللغة ابسط الكلمات واقربها الى فهمه ، وان يركب الكلمات بأسلوب سهل لا تعقيد فيه حتى يفهم من لغته ما يريد فيطمح الى تعلم المزيد لكي يرتفع الى مستوى العلم والمعرفة .

سقت هذا وقد عزمت على الحديث عن شاعر شعبي ، والذي شجعني على الحديث عنه هو ما وجدته فيه من صفة لازمت بعض شعراء الفصحى حتى اصبحت علماً عليهم، وهؤلاء الشعراء هم الشعراء الصعاليك (١) والصعلوك في اللغة : الفقير الذي لامال له وصعاليك العرب فقراؤها ولصوصها ، وهي مذهب ينسلخ بصاحبه عن حياة مجتمعه انسلاخاً حتى يكون لنفسة حياة مستقلة لا تعترف بقيم المجتمع الذي يعيش

(١) الاغاني ص ٧٣ ج ٣

فيه وتتخذ لنفسها قيماً اخرى تغاير ما عرفته من اخلاق القوم وطباعهم ، وهي بهذا المعنى تمرد على اعراف المجتمع وارادة منفردة للتعبير عن قسوة مواضعاته وافتراق عنه ، ولا مناص من اتخاذ وضع يعبر عن هذا الافتراق ويشير اليه . وقد اتخذ الصعاليك لهم منهجا هو اعتزال الناس وقطع الطريق عليهم حتى تتأكد ذواتهم بما يسلبون وما يعملون ، وهم بهذا المنهج قد حفظوا انفسهم من الضياع وحفروا بأقدامهم صخور الزمن حتى وعت الاجيال من اخبارهم ما وعت وحفظت من سيرهم ما حفظت ، والصعلكة ليست وقفاً على ارذال القوم فقد تعاطاها من كان سيدا في قومه كعروة (٢) بن الورد الذي يقول :

واني امرؤ عافي انائي شركة ... وأنت امرؤ عافي انائك واحد
أنهزل مني ان سمنت وان ترى ... بجسمي شحوب الحق والحق جاهد
أمزق جسمي في جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

وهي كما قلت منهج نفسي يفصح عن نفور من حياة المجتمع ويقف من قسوته بقسوة اخرى تلبس لبوس البطولة والقوة وتعبر عن هذه القسوة بشعر يبرر هذا المنهج ويسوغ تعاطيه ،

واذا كان للصعاليك مكان كبير في ادب الفصحى فأن العامية حفلت بهم ولكن اخبارهم لم تدون مع اختلاف في الزمن وفي طريقة الاداء ، وما كنت لادون شيئاً لولا صدفة عرضت ، ولولا اصغاء لهذه الصدفة العارضة ، وانا أعلم كم يكون صعباً تذوق شعر قيل باللهجة العامية وهذا الشعر نفسه يعتمد اكثر ما يعتمد على المحسنات

---

(٢) المصدر السابق نفسه

اللفظية من جناس وتورية وكناية وقد اختفت هذه المحسنات البديعية او كادت في الادب الفصيح الا ما جاء عفو الخاطر بعد تعدد المذاهب الفنية في القول والابتعاد عن السجع والجناس مما كان يحفل به شعراء وكتاب العصور المظلمة مؤثرين تغطية افلاسهم الفكري والنفسي بالكلمات مسجوعة ومتجانسة ، واذا كان كتاب وشعراء الفصحى حاق بهم الافلاس الفكري والنفسي فأعملوا في البديع أقلامهم ، فلا غرو ان يحذو حذوهم شعراء العامية ، فقد كان شعراء الفصحى في القرن الماضي ينظمون الزجل ويرون فيه فناً من فنون القول وميدانا للمباراة فيه ؛ فاذا كان الجناس هو محك القدرة على النظم باللغة الفصحى فلا شك ان يكون تأثيرهم بشعراء العامية بالغاً ، فالعامية تبع للفصحى بل هي الرائد لمذاهب القول فاذا افلست الفصحى أفلست العامية والعكس ليس صحيحاً ، ولذلك نرى ان الزجل اخذ يرتفع معنى ومبنى فى تلك الاقطار التي اخذت من الثقافة بحظ وافر كما نرى هذه الظاهرة في لبنان ومصر .

وما زال الشعر الشعبي عندنا يحبو وهو يريد لحاق من سبقه سواء من حيث الشكل او المضمون ، وقد كان للاغنية وتطورها في تلك الاقطار دور كبير في تطوير الزجل بما يلائم ذوق العصر ، واحسب ان وصول الثقافة الغربية الى هذين القطرين قبل وصولها الينا وتطور فن الغناء فيهما تطورا كبيرا قبل تطوره عندنا كانا عاملين حاسمين فى بعث الزجل غنياً بالمعنى طيعا فى الاداء اكثر من طواعيته بلهجة القطر العراقي ، والزجل كان وما يزال عمدة الغناء وميدانه الخصب .

ان صعوبة قراءة الشعر الشعبي مكتوباً ليس متأتياً من الجناس وحده بل ان صعوبة

كتابته لا تقل عن معميات الجناس الذي يذهب مذهباً بعيداً في تعمية المعنى ، وكلما كان الشاعر متمكناً من اداته ذهب فى تعمية الجناس حدا يجعله كالطلاسم فالتعمية اذن متعمدة فيه ، ومجال الجناس واسع في اللهجة العامية لما يلجأ اليه الشاعر من نطق اللفظ بشكل واحد دون الالتزام بما يعتوره في اللغة الفصحى من تبدل ولنضرب لذلك مثلا بهذا « الزهيري »

جاهد على المال واجني للشدايد هلك
من جلة اللي مفالس ما تگدر تكاوم هلك
!لما ذخر للنوايب والعوايز هلك
كالطير بجناح من جلة معاشا يصد
واليجهل الماي بحزوم المفاوز يصد
لو چان حالك ردي عنك صحيبك يصد
ولو چان حالك عدل كل الخلايك هلك

اي جاهد على الحصول على المال واجني للشدائد ما يدفع عنك التهلكة فقلة الفلوس تجعلك بحال لا تمكنك من مقاومة أهلك وهي تريد ان تبذل لها المال بسخاء ، والذي لا يدخر المال للنوائب وحاجات الزمن يهلك كما يهلك الطير ذي الاجنحة فهو لقلة معاشه من الحب يصطاده الصياد ، أو كالذي يجهل الماء بشعاب المفاوز فانه يظل عطشاناً ولذلك فان الناس ينظرون اليك من خلال المال فان كنت لا مال لك فان اصحابك يصدون عنك وينفرون منك . وان كان المال معك فان الخلائق كلها اهل لك فـ « هلك قصد بها في القافية الاولى ما يدفع عن الهلاك وفي

الثانية الزوجة وفي الثالثة الهلاك وفي الرابعة الاهل و« تصد » في الاولى بمعنى يصطاد . والثانية من الصدى وهو العطش والثالثة من صد اذا نفر وابتعد .

وقد تأتي صعوبته كذلك من ان شعراء العامية وبخاصة في الموصل لم ينظموا شعرهم في لهجة الموصل الدارجة وان كانوا من اهلها في الصميم وانما نظموه بلهجة اخرى هي لهجة العرب الساكنين في اطراف مدينة الموصل وهي قريبة من لهجة الجنوب وان كانت تستعمل بعض العبارات البدوية ، فالقاف فى هذا الزجل تنقلب الى جيم في بعض الالفاظ فتلفظ « قلة » من القليل « جلة » وتنقلب الكاف الى « جيم » فكان تلفظ « جان » ولعل ما فى اللهجة الموصلية الدارجة من امالة ومن قلب الراء الى غين جعلها مقصورة في النظم على اولئك الذين ينظمون بها فى ميدان الهزل والنقد الاجتماعي فاغنية :

يا قضيب البان ثكلني حميتي دطبخ الكشكا واغلق باب بيتي
والحمي لمن اتقوم ابزعجتا حنكا يغجف او تنحل يازمتا
واللا أش دظغبا ميي ابجزمتا يا حمي ابهل سقاعا اتغبيتي

ومعناها ان الكنة تدعو قضيب البان (١) صاحب المزار المعروف بأن يقتل

(١) قضيب البان : هو ابو عبدالله الحسين بن عيسى بن يحي بن علي الموصلي ولد سنة ٤٧١ هـ (١٠٧٨ م) فى الموصل ونعلم القرآن وحفظه وهو ابن تسع سنين ثم درس التجويد والعربية وتفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ، وقد اجمع الذين ترجموه بأنه كان رجلا مهاباً ما رآه احد الا احبه واذا دخل السوق هدأت الحركة والاصوات وقام الناس على ارجلهم يلتمسون البركة منه توفى سنة ٥٧٢ هـ ودفن في الرباط الذي انقطع فيه المعروف بمقام الشيخ قضيب البان ص ١٦١ جوامع / الموصل لسعيد الديوجي .

حماتها لكي تطبخ « الكشكا »(٢) وهي حنطة معاملة بنوع خاص تطبخ وتؤكل ايام الربيع على الاكثر ـ وتغلق باب بيتها لكي تشعر بالاستقلال ولا تخشى رقابة احد ، ثم تعدد الكنة مثالب حماتها فهي عندما تقوم منزعجة يرتجف حنكها وتنحل « يازمتا » واليازمة هذه اشبه بالاشارب في الوقت الحاضر يعصب فوقها بعصابة سوداء « البويما » وقد انقرضت او تكاد ، وتقول الكنة بينما الحماة وهي في هذا الحال أهم بأن اضربها مئه ضربة « بجزمتها » والجزمة حذاء جلدي له حلق طويل مما كان يلبسه نساء الآمس وعاد فظهر ثانية مع تهذيب فيه لدى الغاويات من النساء في الوقت الحاضر . وتخاطب حماتها بأنها تربت وشبت على هذه الرقاعة ، ومثار نقمة الكنة على ما يبدو من هذه الاغنية هو بخلها الشديد وتقتيرها في الانفاق ولكن يظهر ان الكنة لا يهمها من امر سوى ملء معدتها فما ارخصه من مطلب .

ولم يبرز شاعر بهذه اللهجة يطوعها للغناء اذ ان الاغنيات التي تغنى بها كما اسلفت مقصورة على اغنيات النقد وما يراد به الاضحاك في حفلات الانس والزفاف مما يسمى بالمنالوج لان ترويض اللهجة للغناء هو الطريق الذي يدفع بها النمو والمرونة ، ولعل طغيان لهجات العرب القاطنين في اطراف المدينة واندماجهم في حياتها وطغيان غناء العتابا والسويحلي والنايل كان وما يزال هو الغناء المحبب سماعه لدى اهل الموصل مدينة وريفا واداته هي لهجة هؤلاء العرب الذين اسلفنا بأنهم

(٢) الكشكا ـ كشك فارسي ـ تتخذ الكشكا بالموصل من المدقوقة اي الحنطة المسلوقة المنزوعة القشر بواسطة « الدنك » تطبخ مع اللحم وتصبغ بالكركم اثناء طبخها . انظر كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل ص١٦١ للدكتور داود الجلبي .

يتخذون لهجة ريفية قريبة من لهجة الجنوب ، لذلك ولان مدينة الموصل تكاد تنفرد بلهجة خاصة بها وهي مدينة صغيرة قبل ان تتطور وتتسع جعل لهجتها بدعا بين لهجات من يجاورها وظل اهلها يتكلمون بلهجتهم على استحياء امام الاغراب اوسرعان ما يغيرون لهجتهم لما يلاقون من نقد واستهزاء . على ان لهجة الموصل الدارجة بما فيها من امالة ولفظ للقاف كما وضع في اللغة الفصحى وارجاع الضمير للغائب بالواو مثل « قلتولو » اي قلت له لا يحول دون النظم بها زجلاً يبلغ ما يبلغه اي زجل من قوة ونماء وبخاصة بعد ان يدفع الزجل عنه كابوس الجناس ويحرره من اساره،

وقد يقال انها دعوة للعامية ولكني لم أرد هذا فاللهجات العامية رافقت الفصحى منذ فجر وجودها فى جميع الامصار وقد اثبت ابن خلدون في مقدمته نماذج من الزجل كان شائعاً في زمانه ولم تؤثر الازجال قاطبة على اللغة الفصحى لما بينت من ان اللغة العامية تبع للفصحى وهي التي ترفدها ابداً بأعلى النماذج الفنية ،

الشعر الشعبي

ثمة حقيقة تعيش في الشعر الشعبي ولا تعيش بغيره هذه الحقيقة تقف ابداً لتعبر عن معاناة الانسان بطريقة عفوية ولسبب بسيط هو ان الشاعر الشعبي يختار كلماته مما تلتقطه اذناه وما يحسه قلبه مما هو مألوف ومتداول فيعطي من احساسه وروحه مواضعات الناس في زمنه وتفكيرهم ولا يعيب الشعر الشعبي انه يعيش زمنه فقط ولا يتعداه الى ازمان مقبلة ، ذلك ان تطور اللهجة قانون منضبط على اللهجة العامية بخاصة اكثر مما هو منضبط على اللغة الفصحى لما ارسى لها القدم من قواعد النحو واقرار صياغة الالفاظ وان تباينت الاساليب من زمن الى آخر . والعكوف عليها عكوفاً شبه ملزم واعتبار الاشتغال بقواعدها وصرفها وبيانها ديناً أو لازماً من لوازم الدين لانها الاداة لفهم القرآن الكريم فترتب على ذلك اهمال العامية اهمالا ضيع الكثير من فهمنا لاحداث التاريخ وفهم تفكير الناس وطريقة معاشهم ، وقد يقال بأن الشعر الشعبي هو الآخر له قواعده واصوله وعروضه ولا يستطيع نظمه الا من اوتي موهبة ارسال الشعر ونظمه فهو لذلك لا يعطينا كل ما نريد بسبب انحباسه في اطار الوزن والقافية فهو لا يعبر تعبيراً منساباً عن حاجات الناس ، ولكن هذا ان كان صحيحاً فتكثيف الصورة في الشعر ورنة القافية والوزن تجاوز تقصيره وتعطيه الايحاء الموفي بالمراد . ان كلمة شعبية واحدة تفسر حدثاً وحياة اكثر مما تفسره الكلمة الفصيحة ، هذه الكلمة المغروسة في اعماق النفس ذات المدلول الحي الحساس « يقول ابن خلدون فيمن يعيب الشعر الشعبي . « ويعتقد ان ذوقه انما اتى من

فقدان الملكة فى لغتهم فلو حصلت له ملكة من ملكاتهم لشهد له طبعه وذوقه ببلاغتها ان كان سليما من الافات فى فطرته ونظره والا فالاعراب لا مدخل له فى البلاغة ، انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود ولمقتضى الحال ولا عبرة بقوانين النحاة فى ذلك واساليب الشعر وفنونه موجودة فى اشعارهم » كما يقول : « واعلم ان الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما يحصل لمن خالط تلك اللغة وكثر استعماله لها ومخاطبته بين اجيالها حتى يحصل ملكتها ، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته وذائق محاسن الشعر من اهل جلدته وفي خلق السموات والارض واختلاف السنتكم والوانكم لآيات» .

وبهذا التفسير الواقعي نستطيع تذوق الشعر الشعبي كما نستطيع الكشف عن جوانب من تفكيرنا وجوانب من عاداتنا .

عبو المحمد علي حياته ـ شعره

قلت فى بدء حديثي عن زجل الموصل انني سأتناول شاعراً شعبياً عاش فى الموصل حياته وانغمس في جو يحفل بكثير من جوانبه يصور لحياة اهلها ؛ جو مظلم ، جـــو اشبه بأجواء علب الليل فى مدينة هي مدينة الموصل ، فشتم الناس وشتموه واستطاع وحده ان يعيش بفكره ويترجم فكره شعرا ويبثه بين طبقات الناس المختلفة ذات الدين والورع او ذات المجد والسلطان فنقد عادات الناس وتحداها قولا وفعلا ـ فخشيه الناس وعافوه وهجروا مصاحبته بل كانوا حرباً عليه ، وكان وحده حرباً عليهم ، ولكنه وقف كالطود يشاتم ويشتمه جميع الناس ، كان لسانه إبراً حـــادة تنغرز في قلب كل من تصدى له والغريب انه خاض معركة غير متكافئة ولكنه صمد لها وانتصر ، وبقي . ذلك هو عبو المحمد علي عملاق غرق في حمأة العبث والتشرد ، وكان سباحاً ماهراً يستطيع الخروج والتنفس متى شاء ، واذا كان الصعاليك يعتزون بقطع الطرق وسلب الناس فقد كان هو ايضا لصا وشقياً ولكنه يحـــترم جاره وجارته ولا يرتضي لنفسه ولا لغيره ان يمسها بسوء ، كما لا يرتضي لنفسه ان ينازل فقيرا ضعيفاً او انساناً يعرف منه ستر الحال . وكان صادقاً مع نفسه كل الصدق جسورا مع غيره فى قول الحق وان بلغ هذا حد الجرح ، فلم يكن يرجو من حياته علوا ولا مجدا ولا يريد بها فخراً ولا مباهاة بجاه ، وكانت هذه القيم ابدا تحت قدميه . ولم يأبه لما يقال فيه الا ما كان له به مساس فكان ينبري كسهم مراش لا يدع كلمة من كلمات الحط والانتقام الا رمى خصمه بها ؛ واذ لم يكن المجد له هدفاً ولا العلو في حياته سلماً فقد آمن ايمانا عميقا بزيف اخلاق الناس ، ولم يحد عن موقفه هذا حتى مماته .

عبو المحمد علي في اواخر ايامه

رجل ذب عن حياضه وفكره وارجاسه وصور القبح ما رأى وما عاش بروح لا تعرف الزيف ولا تعرف الملق والرياء . وهوالذي عرى نفسه عريا تاما وعرى فكره عريا فاضحا في زمن لم يكن العري معروفا كما نعرفه اليوم ، ولم يختف وراء براقع الصمت الخجول او وراء كلمات المجاملة تظهر الود وتظم في ثناياها خبث الطويـة وسوء السريرة ليقال عنه : انه انسان مستور ، ولذلك كان شكاء من ابناء بلدته ولانه لا يعرف مداراة احد او تملق احد فقد تساءل عمن يلومه اذا رحـل ونزل بديار العظيم لانه من «البو شاهر» وديار العظيم منازلهم بالاصل ، لماذا ؟ لان اناسا يجورون عليه ويقولون له دار الناس فيتساءل وكيف اداري اناساً افعالهم مشينة ودارهم غير زكي يقول :

جني مصايب شديدا بالزمان اعظام
والهم لازگك بجبدي والضمير اعظام
من لامني لو شلت وانزل ديار اعظام
من جور گومن يكولولي الخلگ دارهم
شينين الافعال مو طاهر زكي دارهم
اليقصد انذال والينزل عـلى دارهم
شبه الذي جاي ايريد امن الچلاب اعظام

ولا أتصور أبلغ في الهجاء والنقد من هذا فهو يقول ان الـذي يقصد الانذال ويريد النزول في دارهم شبه الذي يريد من الكلاب عظاما ومن يلاحظ الكلب على اتصافه بالوفاء لصاحبه يلاحظ حرصه الشديد على ما يحصل عليه من عظام لا يحصل

عليها الأ بشق الانفس بل قد يبلغ من حرصه عليها انه يدفن ما زاد عن حاجته في باطن الارض ليعود اليه وقت الحاجة ، ويتحدث عن نفسه فيقول : ان نفسه لا تهم بأمر رديء وهو ان حكى فانما يقول صدقا ولا يوجه تهمة لاحد ولا يعتبر بكل من يروي حادثة ، ويعلل ذلك بأن الروايات فيها كثير من الاختلاف والزيف ولذلك فانه تجنب الزواج والانجاب ولكنه مع ذلك لم يتخلص من الناس وسبابهم فان نهاية الانسان الموت وسيقول الناس عنه انه سيحشر في جهنم ويحشر معه قرناؤه ولكن ميتته هذه يتشفى بها الحمير اما الذين فيهم نجابة فانهم يألمون لموته يقول :

ما يوم نفسي على بعض الرديا تهم
أحچي صدگ ما اوجه للخلايگ تهم
وهلي الروايات ما ارضى روايا تهم

لن الروايات بيها امن الفشر واخلاف
واتجنبت عن زواج او عن ضنى واخلاف
ما صابني غير موتا ابها جدل واخلاف
تشفى الزمايل اوعد اهـــل النجابا تهم

ان سيرته تستهوي القارىء والباحث على حد سواء وحياته تعبير متمرد عـــلى حياته فهو ليس اخلاقياً اذا ما نظرنا الى الاخلاق من خلال النظرة الطبقية فهو يعتبر اخلاق الناس العامة قائمة على اسس من النفاق والدجل ولذلك وقف منها موقف الناقد الممعن بالاستخفاف بها المتجه الى الطرف النقيض منها ، فهو لاه عابث يلعب القمار ويعب الخمر وينتقل من سجن الى آخر ويصف ما يراه في السجن من انواع

البراغيث والقمل كما يصف اخلاق السجانين ولا يرى فى ذلك مدعاة لحياة رخيصة تافهة ، واحسب انه يجد فيها متنفساً ينتقم به من مجتمعة وهو يرى فى الخروج على المتعارف من اخلاق قومه واتجاهاتهم الفكرية والعقائدية شرفاً كبيرا وفهما لحقائق الاشياء لا يدركه الا من نظر في الحياة نظر المتأمل الفاحص وهو على ما كان عليه من أمية فهو لم يعرف القراءة والكتابة وانما يصدر فيما ينظم من شعر عن نظرة متأملة لم تتهيأ لغيره فى زمن كانت الموصل منغلقة على نفسها منعزلة عن غيرها من المدن تتحكم فيها ارستقراطية مترفعة فارغة الفكر مجدبة الاحساس ضربت حول نفسها نطاقاً من العزلة لتهابها العامة وتخشاها وهي فى ذلك معذورة بطابع العصر الذي كانت تعيش فيه ، بنت مجدها على انقاض بشرية أكلها الجهل وعضها المرض وركبها الجوع، ولكن هذه الهياكل البشرية قانعة بالميسور من الزاد وباللقمة من الخبز وبالدواء الاحمر يطرح في العين يشفي من الرمد وبالوباء ينتشر فيهلك الناس بالآلاف وبالامهات تلد ليموت اولادها من جهل بقواعد الصحة وبأيمان مطلق بأن الله يهب ويقبض . وتغلق ابواب المدينة في المساء فلا يخرج منها احد ولا يدخلها أحد وتنام خائفة من اللصوص وتنتشر في ازقتها الضيقة الملتوية الموحلة روائح العفن ويرقد على ابواب بيوتها الخشبية ذات المغالق المحكمة صمت اشبه بصمت القبور ، وتشاد بيوتها كهيئة القبر الا فتحة تطل منها السماء فتتراءى منها النجوم في الليل ،ويدخل فيها ضوء الشمس فى النهار ، فلم تكن للدار نافذة تطل على زقاق خوفاً من اللصوص واجتناباً لفتنة النساء ، وكان الرجل اما انتهى من عمله قبل المغرب رجع الى بيته فوضعت المائدة وتحلق حولها من فى الدار وما ان يفرغ من تناول

عشائه برمة (١) او عدساً او برغلا (٢) حتى يصلي المغرب في جامع المحلة ويذهب الى المقهى يشرب فنجاناً من القهوة المرة ليعود بعد صلاة العشاء الى داره فلا يخرج منها الا اذا بزغ اول خيط للفجر، فتكون الحياة قد دبت وانفرج الخوف وزالت مع الظلام هواجس القلق. فلم يكن عبو اذن يعرف القراءة والكتابة شأنه شأن غيره من الرجال والنساء على حد سواء واذا كان الرجل له مضطرب اوسع في حياة مدينته فلم يكن للمرأة الا البيت تغزل او تنسج او تؤدي واجبات البيت الكثيرة وتذهب الى النهر ومعها كارة من الملابس المتسخة تجمعها جمعاً كلما رأت انهـــا تستحق الغسيل وقد لا تغسل بعض الحاجيات خوفاً عليها من الماء لا ينقص من عمرها المديد ولهذا كانت الحكايات الشعبية تشير الى ان للنهر شيخاً يسمى (شيخ الشط) فهو يخرج بين آونة وأخرى يسرق بعض الحاجيات ويغرق الاطفال. ولعل الصدى ورجعه عندما تتحدث امرأة او رجل هو ما كانت تخاله جداتنا شيخا للشط وانه يقلد الانسان تقليداً تاماً، وكان شيخ الشط بعبعاً مخيفاً تحاك حوله القصص وكأنها واقع لاشك فيه.

اذن لم يكن هناك ماء في الدور بالرغم من قرب النهر من المدينة واستعاض عنه اهلها بحفر الآبار في دورهم ويكون ماؤها اجاجاً ولذلك كانت السقاية مهنة شائعة

---

(١) برمة قارورة يوضع فيها اخلاط من العدس واللوبياء اليابسة وجريش البرغل يضاف اليه الملح والماء وتسد فوهة القارورة ويذهب بها الى كرخان الحمام وهو موقد حمامات الســـوق فتبقى في الكرخان حتى الصبح ثم تجلب من الكرخان لتؤكل في الصباح. المؤلف

(٢) برغل ومنهم من يقول « برغل فارسي ». برغول بفتح الباء وبضمها وبلغور (بضمها) تركي بورغول ـ حنطة تسلق ثم تداس بالدنك ويزال منها قشرها ثم تجرش فتكون مهيأة للطبخ والطعام يتخذ منها بعد اضافة رشتة اليها.

كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل ص١٦ للدكتور داود الجلبي.

ويأتي السقاء براوية الماء من حافة النهر ملوثة ويصبها في المزملة وهي وعاء من حجر منحوت لا تخلو منه دار فينمو في المزملة فيما ينمو العلق فكان يؤخذ ويستعمل فى علاج بعض الامراض وكانت الآبار هذه تستعمل فيما تستعمل لوضع الجرار فيها في الصيف مدلاة ليبرد ماؤها .فالمرأة اذن تكاد تجهل كل شيء وتكاد تجهل نفسها ولا عجب في ذلك ان سمعنا كثيراً من الحكايات الشعبية تشير الى غباء المرأة وجهلها جهلا (١) مضحكا فاذا كان هذا هو واقع مجتمع عبو فى بدء حياته فلا بد انه يتلفت وينظر الى طبقته وما يحيطهامن غلظة وقسوة في الفكر وعنجهية في النفس فيجد نفسه يرتفع عنها ارتفاعاً يجعله يتصور ان كل من رآه او خالطه او جربه ان يكون اكثر من ثور لا يصلح الا للسقي والجر ولذلك يجد نفسه ابداً بأنه غريب في قوم غرباء وان كان فى وطنه بين اهله فتحدثه نفسه بالرحيل عنهم

چيف استوي مع خلايگ شبه البهايم ولف
بديار نحسا ولا لي بين اهلها ولف
جربتهم واحدن واحد او ميا ولف

منهم ثيارين عده للسجي والجر
نصح يطيعون للبيهم نصف والجر
عنهم لجنب وعوف امن الوطن والجر
وارحل وكفكف معاهم كل حسبا ولف

وهو في مقارنته نفسه مع غيره يلاحظ الفرق بين انسان واشباه بهايم بديار

(١) الحكايات الشعبية للاستاذ احمد الصوفي ،

نحسات ليس له فيها أليف ، وهو لا يلقى القول جزافاً وانما هـو مقتنع بما يقول يصدر عن ذلك بتجربة واحدواحد منهم ويزيد مائة والفاً فيجد انهم ثيران يصلحون للسقي والجر وانهم ينصحون في العمل ويطيعون سواء لمن انصف معهم او جار عليهم فما عليه ان تجنبهم وعاف وطنه وجاره ، ولف معهم كل حساب ولكنه لم يرحل وربما وجد بهذه الثيران تسلية ومتعة .

وهو على تشرده برم بحياته او بتعبير أدق لانه برم بحياته راح فى حياة متشردة تنسيه آلامه . كما ان احساسه العنيف بعبث الحياة جعله يألف حيـاة التشرد مادام ثمة هاجس يقض مضجعه ويتركه قلق البال غير مطمئن الى ماوراء عبثـه فهو يضج بالشكوى ولكنها شكوى جافة ـ ان جاز التعبير ـ قاسية قسـوة حياته نفسها وهو في تصوير ما يحسه من ملل وهو يكرر (مليته) على اختلاف المعنى يعطينا رتابة الحيـاة وسأمها فهو قد حشى قلبه من الحشرات منذ نعومة اظفاره ، وملأه حسرات ، وكتاب نجمه منذ طلوعه كتاب نحس ولكنه مع ذلك لم ييأس فهـو يحب السعادة ويريد العيش الهنيء ويحتال لها بشتى الوسائل . ولكن السعادة تجفل منه وتنفر عنه بعيداً فى القفار تماماً كما يهرب منه الناس ، عندذلك يستسلم عاجزاً يائساً من العيش الهنيء، فاذا كان ابن الثمانين يمل من حياته لعجزه ولشيخوخته ، فكيف به وقد مل حياته وهو ابن عشرين عاما ، وليست العشرون الا ربيع الصبا وشباب الحياة ، انظر الى بشارة الخوري يقول في ابنته وداد وقد بلغت سن العشرين ،

عشرون قل للشمس لا تبرح وللدهر اجمد
عشرون يا ريحانة في انملي مبـدد

عشرون هلل يارييـــع للصبا وعيد
وبشر الزهر بأخت الزهر واطرب وانشد

ذاك ربيع بشارة الخوري وعشرون ابنته وداد فأين مـن هـذا الربيع جفاف الصحراء وعطش الرمل الى قطرة ماء ، يقول عبو :

حشيت گلبي من الحسرات مليته
واچتاب سعدي طلع منحوس مليته
السعد بيا يظن عاديت مليتـــه

وابها السبايب نفر وجفل او عني يمل
وضحيت ميؤس من عيش التهاني يمل
ابن الثمانين گالو من حياتا يمل
وآني حياتي من العشرين مليته

ان في قوله واضحيت ميئوس من عيش التهاني يمل : أي (ياملا) والملا هو من يقرأ ويكتب مشتقة من الاملاء . صرخة تختفي وراء كل كلمة فيها معاني اليأس على بساطة التعبير وكأنه يتحدث حديثاً عادياً مع الملا .

ان الزمن تيار جارف والاحساس بثقل الحياة ووطأتها لا عبرة فيه للسن فشعوره به شعور منسحق تحت كابوسه فلا يمر به الزمن مروراً عادياً ، ولا يقف من الزمن وهو ينظر الى الاشياء والى العالم الا كمن ينظر الى الارض وهو ينطاق بقطارسريع كيف يطوي به الارض طياً،ولا تبقى فى مخيلة الناظر من نافذته الا اخلاطاً من المشاهد لا تكاد تستقر ولا تثبت الا اذا عاد الى نفسه واستعاد صور الاشياء واعاد

تركيبها من جديد ، ولذلك فانه يرى ان الدنيا لا وفاء لها لانها لاتبقى على عهد وهي تنقض عهودها مهما كان العهد موثقاً ، وهي تنقض على النفس انقضاضاً سريعاً مميتاً فلماذا يجاهد الانسان الانسان ويقضي حياته بالتعب والعناء ، ويريد ان يلف رجله على رقاب الخلق ويصعد على اكتافهم ؟ ولماذا يحسد الانسان الانسان ويدور مع النميمة في كل مجلس؟ يصور له غروره انه يدور بديار أحبائه والدار ليست داره ولا دار أحبائه ، وهي ان امتدت به ألفاً فلا بد له معها ان تنقضي .

دنياك ملها وفى واعهودها تنكضي
واعلى المنيا سريع اعلى النفس تنكضي
مالك تجاهد اوروحك بالعنا تنكضي
واتريد رجلك على ارگاب الخلايگ تلف
لابس ثياب الحسد وامعا النميما تلف
مغرور ظنك تريد ابدار سلمى تلف
وان الفت بيك لازم بعدها تنكضي

ولكن الانسان لا يهدأ ولا يستقر مع اعترافه بأن الدار ليست داره فهو يريد النصر في دنياه ويحاول العلا جهده يبحث عن المال بحثاً ويجمع الفلس فوق الفلس، والعانة فوق العانة ـ والعانة ـ هي اربعة فلوس ـ لا يمل ولا يضجر من هذا الجمع حتى لو كان المال الذي يجمعه مال اطفال ايتام سائبين ليس لهم من معيل في الحياة ، والعمر يمضي به الزمن خبباً حتى اذاجاء الموت فلا يرد المال عنه ما كان يعده لدفعه فهو يسأل هذا الجامع للمال اذا مات ، وتم له ما أراد من المال ، ماذا يرسل اليه وارثه الى قبره غير الشتائم او ما يتعبه حتى في مرقده :

جهدك تريد النصر من دنيتك والعنا
وتجمع أموال وتلـــم الفلس والعنا
الك روح مالها امن الضجر والعنا

تنهب اوتا كل حلال اطفـال سيبا يتم
والعمر دايروح منـــك يا مسودن يتم
أرد أسألك لو متت والمال بعدك يتم
شي دز إلك وارثك غير الشتم والعنا

والدهر واقف للانسان بالمرصاد، يترقبه لا ليعطيه ويمنحه القدرة عـلى العمل وانما هو واقف دائماً ضدالانسان يظلمه ولا ينصفه، ويأخذ منه ولا يعطيه وهـو فى حركة دائبة لا يقر له قرار ، كل يوم يهجم قصراً عامراً ويدعه خراباً ويرفع كوخاً حقيراً ليجعله قصراً منيفاً،فكم شتت من قبائل وردم قلبانا كان يردها الظامئون ، فهو خوان غدار لا يفي بوعد ، وافعاله مذكورة بدفاتر التاريخ تعدد ما شاء مـن خيانته وغدره،وليس الدهروحده هو الظالموانما يشاركه الانسان فى ظلمه وغدره ،واخص من عموم الانسان هذا الذي يكون قريباصديقـاً او صاحبا يلتزم بما التزم به الدهر من خيانة لصديقه وصاحبه فاذا كان الصديق يخون صديقه فحري ان يخون الانسان على وجه العموم ، فالدهر والانسان كلاهمامتمم لما يفعل الاخر هذا يخرب ويدني الاجل ويبعد القريب ، وهذا الاخريستغل الزمن لصالحه ، فهما فرسا رهان في افعال الغدر والخيانة فهو يقول فأذا رأيت صاحبك يوما يرميك بداهية ويجعلك تبكي فهو يجري فوق دموعك دمك ثم يتظاهر بأنه نصيرك وخليلك . وكلمة (دام) تعطي لون الدم وما يرافق الدم من قسوة وعنف وتلون الابيات على مختلف معانيها .

الدهر واگف على حد المظالم دام
كل يوم يهجم گصر عامر او يعمر دام
شتت گبايل او گلبان التردها دام
خوان غدار مايوم يوفي وعـــد
وافعايلا دوم تذكر بالدفاتر وعـــد
ان صاحبك يوم ذبك بالمعاصي وعد
يدعيك باچي او يجري فوگ دمعك دام

ثم يراجع نفسه من جديد ويكرر بأن الدنيا هـذا وضعها من الازل،وليس وضعها وليد الظروف الرهنة توا فهي تهب وتسلب لا تأوي لاحد في حكمها،وحكمهاحكم شديد صارم فقد مرت على اجيال فتركتهم وكأنهملم يأتوا ولم يبـق من آثارهم شيئاً. والغريب اننا نبحث فيها عن الانس والخمر واللهو ونريد منها تحقيـق امانينا كمـا نريد منها الامان والراحة،فاذا جاء لعين واصابنا اذاه ومات وراح وفرحنا بموته فلا يأتينا الا العن منه،ونتمنى بما يولينا من ظلم اللعين الذي راح قبلا ، وهو في انتقالـه الى نفسه بعد تقرير وضع الدنيا بلهجة بدوية صرفة يعطينا انتقالا لاذعا ساخراً من أحلامنا وأمانينا يقول .

دنياك هذا وضعها امن الازل ماتو
توهب او تسلب شديدا لو احكمت ماتو
مرت عـــلى جيال وفنتهم غـــدوا ماتو
او حنا اندور ابهـــا انس الزمان اوراح
ونريد منها الاماني والامان اوراح
كلما اجا العـــين اذانا اومات او راح
العن يجينا اينسينا الـــذي ماتو

ان نظرات عبو فى الحياة ليست نظرات جاهل او امي لا يعرف القراءة والكتابة، وانما يأخذنا العجب من قدرته على تصوير تجاربه تصويراً يفلسف معها الحياة والكون والانسان ، تصويرا يتسم بالعمق وشمول النظرة، وان بدا هذا التصوير مظلما لا تنيره بارقة أمل ، ويحيط الشك من جوانبه ، شك بالحياة نفسها وبالانسان واخلاقه الا انها تجارب تعبر عن طاقة فكرية أغنتها حياته العنيفة وتجاربه ؛ ورفدتها تجارب الناس الناس البسطاء فزادتها غنى ، ان هذه النظرة القاسية للانسان من خلال وجوده ينهج بها ذات النهج بالنسبة لاخلاقه الخاصة التي ارتضاها لنفسه حياة وفارق بهذه الاخلاق كثيراً من عادات الناس فى زمنه .

أخلاقه الخاصة كما يصورها :

لننظر الى اخلاقه كما يصورها هو نفسه ، ولنعرف ماذا كان صادقاً مع نفسه ومع غيره ولنحكم بعد ذلك على مدى اخلاصه لما يقول بعد ان بينا جانباً من تفكيره يقول:

لا تكون نمام ولا تشري نميما بشر
ومأمل الخـــير منـــك لا تردا بشر
اليگصد اعليـــك لازم بالعطايا بشر
واحمي صديگك او حافظ جارتك والجـار
واذبح شجيجك عليهم لو ظلم والجار
ولچان دمك طفح فوگ الوطا والجار
ارضى على الموت او لا ترضى يهينك بشر

انه يقول لا تكن نماماً تنقل الاحاديث، ولا تشتري النميمة الكاذبة وتسمعها، لانها

ليست من الاخلاق الفاضلة والذي يؤمل فيك الخير لا ترده بشر ، فمن يقصدك فعليك ان تمنحه وجهاً باشاً مستبشراً وتعطيـــه مايريد ، ويجب ان تحمي صديقك وتحافظ جارتك وجارك من العابثين ، فان رأيت شقيقك جار عليهـــم فاذبحه ولا تشفق عليه ولو عرفت ان دمك سيطفح فوق الاحجار والارض فلا ترضى من بشـــر اهـانة .

ان هذه مواعظ تصدر من أي انسان ، وهي مثل عاليـــة واخلاق تحث عليهـا مواضعات الناس ، ولكن هذه المثل تتجسد لدى (عبو) حقائق لا يرقى اليها شك وهي واجبة التطبيق في حياته العملية فقد ذبح شقيقه لانه تحرش بجارة له ، فشكا الجار لعبو مافعل اخوه فغضب عبو أشد الغضب وتحين الفرصة فقتل شقيقه ، وقيل ان اخاه تزوج من امرأة لاتناسب عائلته ، واخذ زوجته وهرب بها قريباً من بعض قرى الموصل فأغرى عبو شقيقه (سلو) بقتل شقيقه الهارب بالمرأة لانه لم يسمع نصيحته بألا يتزوج منها فنفذ سلو أمر عبو وقتله .

ومهما يكن من أمر الروايتين فان الثابت ان شقيقه قتل بسبب امرأة تزوجها أو هرب بها ،وهي اخلاق يمقتها عبو أشـــد المقت، ولهذا أغرى – على ما ارجح – شقيقه بقتل أخيه ، قد ننظر الى هذه الحادثة نظرة اخرى ونراها غير موجبة للقتل ولكن عبو يختلف عن سائر الناس وهو يتمسك بوجهة نظره لا يحيد عنها ، وهو يلتزم بأخلاقه الخاصة هذه،لايحب الدنايا يرتكبها اخوه ويلحقه جراءها معرة الناس وأذاهم فهو جدي متصلب لا يعرف المرونة والمداهنة في كل شيء .

ثمة حادثة اخرى تلقي ضوءاً على أخلاقه ؛ حدثني احدهم وكان شاباً آنذاك حوالي ١٩٢٣ انه كان له دكان فى شارع غازي [شارع الثورة الان] يعمل بايجار الدراجات الهوائية للصبيان ويجتمع اليه في الليل اصدقاؤه يحتسون الخمر ، وفي احدى الليالي كان هذا الشاب قد شرب اكثر من نصف زجاجة من العرق،ولعبت الخمرة في رأسه ورؤوس اصحابه فطلب من احدهم ان ينادي عبو،وكان هذا ماراً من امامه فناداه فلم يجب ؛ ويظهر انه لاحظ ماعليه حال القوم بعد احتساء الخمرة من حال ،ولكن الشاب كرر النداء ولما لم يجب عبو رغم سماعه المنادي وهو يناديه اذ عفط له الشاب بفمه فرجع عبو حينئذ ادراجه ويده خلف ظهره متجها نحو الشاب فوقف امامه وقال له : هل تعرفني من قبل قال : لا ، ولكن صديقي هذا اخبرني بأنك شاعر واحببت ان تقرأ لنا من شعرك فرد عليه ولماذا عفطت اذن ؟ ولم يشعر الشاب الا بضربة يكيلها له عبو بمفتاح طويل كان يسمى قبلا « مفتاح الحداد » فشج رأسه وسالت الدماء على وجهه ، وسقط الشاب على الارض ؛ واستدار عبو ليذهب ، ولما افاق الشاب من صدمته امسك عبو والقاه ارضا وضربه بقبضة من حديد قص بها جزءاً من شفته وكسر له ثلاثة اسنان، فاجتمع الناس وسجلت الدعوى فى مركز الشرطة وركب الاثنان بعربة اذ لم تكن السيارة قد درجت بعد في شوارع الموصل تحت حراسة شرطي ، هذا يمسك بأم رأسه وذاك بيده قطعة من شفته والدماء تنزف منهما .ونام عبو فى المستشفى حوالي خمسة وعشرين يوما ولما أزف موعد المحاكمة استطاع ابو الشاب ان يصالح عبو على مئة روبية لقاء تنازله عن حقه فى الدعوى،فلما وقف الخصمان سأله الحاكم ما مهنتك فقال له : مهنتي شاعر فقال ، ارو ما حدث ،

فقال ان ماحدث قد حدث وتم الصلح بيننا وانني اسقط حقي في الدعوى . فقال له ان شفتك مقصوصة واسنانك مكسورة . فكيف تسقط حقك وهي تلحق بك تشويها سوف يرافقك ما عشت؟ فقال لقد رضيت بما حدث وسوف لن يغير الحكم على الجاني ما لحقني من تشويه في الخلقة، واصر على اقواله فقضى الحاكم بالحبس على الشاب ستة اسابيع وظل الشاب بعد هذه الحادثة خائفا يترقب انتقام عبو حتى سنحت له فرصة فهرب الى بغداد وانخرط في الجيش : وظل عبو مقصوص الشفة مكسر الاسنان، تلك اهانة مرت به عرضا فرد على الاهانة رداً حاسما وتمسك بما وعد فلم يخلف وعده عل الرغم من محاولة الحاكم ثنيه عن اصراره وكان بيده نقض ما وعد به ، انه ان عفا لا ينشى عن عفوه يريد جزاءا او اجراً ، وان جاد بشيء لا يحب الاجر على جود بذله وهو يحافظ على السر ويحمي من يلوذ به ويستجير ، لا يخلف وعدا قطعه على نفسه اذا شدد اليمين واغلظه ، وانه يمشي عفيف النفس لا يخون من يكون عن يمينه او شماله، ولا يحث رجله اليمنى على الردى والاذى ، ينصف الناس ولا يعاون الظالم او الجائر على ظلمه وجوره ، ذلك منهجه فى الحياة فليس غريبا ان يعفو ولا يطلب جزاءا. وليس عجباً ان يصر على ما كان بعد قطعه الوعد على نفسه ، ولكنه ان نقض وعده وغير ما التزم به من قول فلنا ان نقاضيه ونطلب منه دفع الحساب انظر اليه يقول :

لعفيت لا تشني تطري الجزا والجار
وان جدت جودات لا تريد الجزا والجار
حافظ على السر واحمى اللاذبك والجار

واياك تخلف بعد ما شددت يمناك
وانهي النفس لا تحث اعلى الردى يمناك
امشي ابعفافا ولا تخون الذي يمناك
وانصف وبالك تعاون من ظلم والجار

وهو عفيف النفس لا يقبل الفتنةولا يرضى بها، و'ن تحدث عذول بغير ماسلف فان كلام العاذل ليس الا باطلا زائفاً .فليخسأ العذول اذن بباطله ، وانه فاته التطلع الى المعرفة والوجد الصوفي فانه لم تفته فنون اهل الهوى جميعاً ولا عجب ، فقد سبر غور الحياة وعرف وتذوق ألوانها ما فيها من حب وبؤس . وشقاء ونعيم ، ولو تأزم الحال فانه يحب فوق سلطان اهل المعرفة والحب ، وما اكثر ما ترك خصمه باكياً وطرفه ناحباً ، ولكن هذا لا يمنع من ان يبادل حبا بحب اولئك الذين يبدون لـه المحبة بأعتباره ذاتاً وانساناً يشبع حاجته النفسية بشعوره انه محبوب،ويؤكد وجوده امام نفسه بأعتباره موضوعامن خلال نظرات الناس اليه ، ومن كف عنه يدهولسانه فأنه يكف عنه يده ولسانه ،والواقع انه يحب بعمق ، ولكن حبه ليس حباً ذا طبيعة تجريدية ، فلم يكن يعبأ على الاطلاق بشحطات الصوفية وحبها المتجرد ، على ان هذا لا يعنى انه لم يتذوق مذاهبهم الوجدية بمايرسلونه من الحان وتوشيحات على ماسنرى فيما بعد ، فهو يبحث في حمأة الرجس عن الفضيلة ويعب السم ليجد لـه الدواء ، ويتجرد على مذبح شهواته ليعرف زيف الحياة ، وقيم المجتمع . ولا ننسى ان مجتمعه وان بدا متديناً الا انه لم يبرأ من علل النفس البشرية وما يرافق اي مجتمع من امراض اجتماعيةتحدد اتجاهاته ، وان هذه الظواهر في نموها واتساعها وانحلالها

تتبع قانون التطور الاجتماعي وتحدد سلوك الافراد ضمن اطارها العام ، فلم يسلم مجتمعهم على الاقل من ضيق الافق ومن الهوس الصوفي يتجلى في كل زاوية من زوايا المجتمع المتدين آنذاك انظر اليه يقول

حنا عفاف النفس ما نگبل الفتنه
خس العذل لو حچا لخلافنا فتنـــه
ان فاتنا الشوف بفنون الهوى فتنه

او لو وزمت فوگ سلطان المحبا نحب
ياما دعينا الخصم باچي او طرفا نحب
حنا عفاف النفس لـلي يحبنا نحب
وان جاز من حالنا من حالتا فتنه

فهو يشير الى فنون اهل الهوى ويعرف سلطان الحب وهو اصطلاح صوفي . الا ان عبو يبقى ذاك الشبح المخيف ، اننا نخاف صورة الانسان عندما ينتصب عاريا دون رتوش ، ومطلب الفن ان يجمل القبيح ويضفي على الحياة امتلاء مثيراً للمشاعر. والانسان ينفر ابدا من نقاط ضعفه يسترها ولا يريد مواجهتها، ولذلك فهو يريد رؤية الجوانب الجميلة ، ولكن هذا الانسان او ذاك . وان بدا وراء صالونـات التجميل جميلا، فثمة حقيقة تكمن فيه هو انه بمقدار ما يظهر جميلا في جانب فان القبـح في الجانب الاخر لن تخفيه رتوش الصناعة ، وان احكمت اليد الماهرة في اعطاء الصورة محسنة ولو كانت الصورة من صنع هوليود ، فالتناقض في ذات الانسان قائم بين التزاماته ازاء مجتمعه وبين اعماق نفسه ما فيها من تنازع الرغبة والرهبة على حد

سواء تصطرع في ذاته ، فاذا نظرنا الى الانسان أي انسان ، هل يستحق عناية ما ؟ او ان يكون موضوع دراسة ما ، فثمة جواب واحد لا غير ، ان هذا الانسان مهما اشترك مع غيره فى المقومات الانسانية ، فهناك مواقف متناقضة تميزه عن غيره وتعطيه طابع شخصية لها ابعادها واهدافها وتناقضاتها ، ولهذا فأنها جديرة بالعناية، حرية في استكشاف جوانبها لعل في هذا ما يكشف جوانب الغموض ، ويعطيها شكلا غير الشكل المرتسم من خلال نظرات الناس العامة ، فالقمة اساساً مقاسة بأبعاد الوديان البعيدة الغور ، واذا كان الثلج يكلل هامات الجبال فأن الوديان مسارب الماء المتفجر ينابيع تسقى العطاش ، وتبرز بانحدارها شموخ القمم ، والانسان على ما اتصور قمة وواد ، وما يبين منه لا أكثر من قمة تضرب ابعادها وانكساراتها في تخوم الارض .

قد نلاحظ ان عبو يفرض من خلال شعره مستويات أخلاقية وفكرية تتسم بالتضاد مع قيم مجتمعه وباعتباره فرداً في هذا المجتمع فان شعوراً حاداً بالتوتر نجده يعبر عن نفسه فى شعره ، فالناس تحب المورد الصافي وهو يحب المورد الصافى ولا يرد إلا منه ، والناس تحب البطولة وترفض مواقف الضعف ، وهو يؤكد انه بعد وروده الماء العذب يعرف كيف يصدر وكيف يرد ، والناس تحب الحق المطلق باعتباره قيمة من القيم العالية بشرط الا يمس هذا الحق مصالحها ، وهو يرى في نفسه انه ليس على حق حسب ، ولكنه متلبس به . ولا يحب الباطل ولكنه يدحضه بكل ما اوتي من قوة ، والناس تحب الخير المطلق بأعتباره قيمة من القيم الرفيعة ، ولكن الخير بالنسبة الى الناس مشروط بالمنفعة وقد ينقلب الخير الى شر ، فالمعيار نسبي يختلف بأختلاف المواقف والزمن ، وهو يتخذ أصدقاءه ممن يتوسم فيهم النجابة والصدق

وهذا ايضا نسبي يختلف بأختلاف وجهات النظر ومن خلال تجارب هذا الانسان مع ذاك ، وهو يدعي بأنه لا يعاب من قبل الذين يفهمون حقائق الامور في كل منزل ينزل فيه او حي يمر عليه ويرى ان شعره بعد موت جسمه سيبقى مخلداً وحياً ، وان الشعر طريقه الى الخلود فهو كالورد في الخمائل سيبقى متجددا كما يتجدد الربيع ، وهذا فأل حسن ، اذ أن مئآت ممن نظموا الزجل عفا عليهم وعلى زجلهم الزمن فلم يبق لهم من ذكر او زجل ، اما انه يذكر الآن ويترجم له فلا ادري كيف مكنت الصدف لهذا الذكر لولا اني خطر لي خاطر جمع شتات زجله ونتفآ من سيرته ، ولعل ما اغراني به اصالة فكرية لمحتها فيه واتجاه يشذ به عن مألوف مجتمعه أو أنه على الاصح يمثل تياراآخر لمجتمعه وكذلك لموته القريب ، هذه الصلة القريبة في الزمن ، والا فانه كان منبوذآيعافه الناس ويودون طمس اسمه ، وما هي الاسنين اخرى كانت تمضي لطواه الدهر فيما طوى من ملايين الناس ، وقد اكون بعملي هذا مستثيراً اولئك الذين يحبون هذا اللون من التراث الانساني .

على كل حال هل اقنعت هذه القيم المطلقة مجتمعه بصحة مواقفه أم انها كانت سبباً في النقمة عليه؟ الواقع أنه مع التزامه بهذه القيم كان ضد مجتمعه . لان المجتمع يرفض القيم المطلقة الا اذا كانت محددة بمواقف معينة ، وان مواقفه كانت لا تسير مع خط متوافق ، وهو يدرك ادراكا تاماً هذه الضدية في مواقفه ويعمل على ابرازها ، فالخير والشر تظل قيماً مطلقة ، وخلقها يتجسد بفعل وقول يبرر الفعل ، أو لا يبرره وبالتالي يحدد معالم شخصيته يقول :

ما انزل الا عـــلى صافى الموارد ورد
واخلاف الورود ادرى امنين أصدر ورد
متلبس الحگك مهوى كل باطل ورد

واصنع من الخير وامشي بالنجابا وحي
ما عابني كل فهيم ابكل منزل وحي
ان مات جسمي ترى شعري مخلد وحي
كلما يذكروا بين الناس يزهي ورد

وهو يبرر افعاله بالنسبة لعلاقته بالاخرين من الناس ، فهو يبين بأن رأسه كرأس الحصان العزوم لاينيخ لاحد ، والافعال المشينة لا يستطيع ان يكون خلاً لها، وكيف يخلي روحه العزيزة بذل ؟ انه لا يستطيع بعد العز ان يحكم عليه نذل يأمر وينهى ، ويمارس امره ونهيه بين اصحابه مستمدا منهم القوة ، ان مقصود هذا الآمر الناهي ان تعبر عيوبه على الناس وعليه ، ولكن عين الشمس لا تغطيها الغرابيل والمناخل .

يا صاح راسي عزم ما اگدر أنا خلها
والفاينه گط عمري ابدن ما أنا خلها
هل چيف روحي العزيزة بذل انا خلها

من عگب ذيچ المعزه نذل يحكم علي
يامر اوينهي او يگدر بـــين ربعا علي
گصد اعيوبا ايعبرهن عليك وعلي
او عين الشمس ما تغطيها مناخلها

انه يجرؤ على تخطي الاخلاق العامة ويجاوزها ويعيش حياة واقعية وبصراحة لا تقبل اللبس وهو لذلك يحدد شخصيته عبر كل فعل يفعله ، انه من هذا النـــوع الذي لا يلين ولا يعرف المرونة في اي فعل يفعله او موقف يقف فيه ، فيفقد اهـــم عنصر فى الاخلاق العامة عنصر الطمأنينة ، فهو منذ وجوده وحتى يومه هذا لم يجد راحة والشيب ألم برأسه وأيام الصبا راحت منه وان كبده من شدة آلامه قد تفطر ، ويداوي هذه الآلام بأن يظل يصب على هذا الكبد راحاً بعد راح ، وجراح قلبه كثيرة لا تعد ولا تحصى ، والموت يراه مقبلا عليه لا يرده شيء ، وان حياته ضاعت من يده وأين يراها بعد ضياعها ، ثم يرجع الى نفسه معللا متأسفا اذ ما يجدي الاسى عليها ان صفق راحاً براح

من صرت لليوم نفسي ما ولت راحات
والشيب روح أو أيام الصبا راحـات
چبدي تفطر واصب اعلى الچبد راحات

واجروح گلبي چثيره ما تعـــدد بعد
والموت أگبل عليا ما بردا بعـــد
ضاعت حياتي من ايدي وين اراها بعد
او شيفيد ليا عليها لصفگت راحـات

طفولتـه : ولنبحث الآن عن سبب جراح عبو الكثيرة التي لا تعدد بعـد ألم يعش حياته كما يريدها ؟ فلماذا يشكومن حياته ومن زمنه ؟ ومن أين أتته السهام فجرح؟ ليس لدينا من حياته الاولى وطفولته قليل او كثير لنستند عليه في بحثنا ، فقد مات عبو

دون ان يذكر شيئاً عنها ، كما اننا لا نعرف احدا ممن عاصره أو رآه انه اهتم بسؤاله مثل هذا السؤال ، وان حياته لم تثر لدى اصحابه أكثر مما يثيره اي شخص يريد تزجية الوقت وقتل الفراغ ولم يسبق ان اهتم احد بحياة شخص ما من عامة الناس ، فقد درجت العادة ان يؤرخ بالوقائع والاحداث لا بالأيام او السنين ، ثم تمر الوقائع وينساها من بعد ذلك الجيل الآخر الذي لا يعرف عنها شيئاً ليؤرخ بوقائع جديدة ، وهكذا تمر الحياة ، والواقع انهم لم يكن لهم شأن بالأيام والسنين، فلم يكن لهم ولد يدخل المدرسة ، او يسلك في وظيفة ، وحسبهم من الولد ان كبر قليلا ووعى ادخل الكتاب ليعرف شيئاً من القرآن والكتابة ويندر من يدع ولده لدى (الملا) بعد بلوغه مرحلة الصبافهم يدفعونه الى السوق ليتعلم اي مهنة اوليتعلم البيع والشراء ، وليعتاد حياة السوق ، فأن كان والده صاحب مهنة تعلم مهنة ابيه ، وهكذا تنتقل الصناعات والحرف أباً عن جد فمن كان قصاباً يصبح ولده بالضرورة قصاباً او ما يتفرع منها من دباغة الجلود وما اليها ومن كان حائكاً أصبح ولده حائكاً او ما يتفرع منها من المهن القريبة ، على ان ذلك لا يمنع انه كان هناك بعض الطامحين بالحكم ، ولما كان الحكم حكرا على الاسياد فيكون الطموح حتما الى درجة دونه كالكتابة فى ديوان الحكومة وهو شأن كبير ، وينظر الناس اليه نظرة ملؤها الاكبار والاعجاب ، او وكيلا لسيد يجبي الديون ويؤجر الأملاك لان السيد لا يمارس هذه الأمور بنفسه الا من خلال وكيل مفوض ترفعاً عن مخالطة العامة واحتجاباً عنها ، على ان الباب الواسع الذي يدخل فيه ابناء العامة ويجدون فيه متنفساً لما يسمى بالوجاهة وشيء من السلطان ، هذا الباب هو استمرار الدرس وتلقي علوم

اللغة والدين ، وكثيراً ما ينعت هؤلاء للتحقير « بالملالي » فهم أقل في درجة السيادة من طبقة الحكام ، وهي بالتالي تابعة لها خاضعة لنفوذها فهي تمدح وتؤرخ وتكتب لها ، ولكن هذه الطبقة تستطيع وبشيء من سلطان الروح ان تمارس سيادتها على العامة بما اعطاها العلم بالقراءة والكتابة وبهذا الجلباب الواسع والعمامة المكورة ولكن الأهم من ذلك كله هو ان الباب يصبح اوسع لهذه العامة لتوجه ابناءها ان رأت فيهم ميلا الى العلم والدين وتحصيله ، فينبغ منهم من ينبغ ويتجه بعضهم الى الزهد وحياة التصوف ، كما ينصرف بعضهم الى الدنيا مستفيداً من وضعه الخاص ، على ان الفضل كله يرجع الى هؤلاء « الملالي » ابناء العامة فهم الذين حملوا مشعل اللغة والدين واضاءوا رغم حلكة الدياجي ووصلوا الماضي بالحاضر ، فالعامة هي وعاء الزيت « والملالي » هم الفتيل المتقد، أنار بمقدار ما يضيء الزيت في السراج بل كان نور سراجهم كما يضيء المصباح الكهربائي . كان لهؤلاء حساب آخر مع الزمن فكثيراً منهم من مارس النظم ووجد في النظم شيئاً آخر غير العبث فهو ينظم القصيد كما ينظم الى جانبه توشيحاً او تنزيلة كما ـ تسمى عندنا ـ في مديح الرسول لتنشد في حفلات الذكر والتي تقرأ فيها سيرة الرسول ومولده وكانت هذه التنزيلات تنشد على نقرات الدف وكثيراً ما يذكر ناظمها اسمه في آخر ابياتها طلباً للعفو وغفران الذنوب ، وظهر من هؤلاء من يهتم بالتاريخ في نظمه فهو يؤرخ في آخر الابيات لحادث حدث او مولود ولد او رجل يموت وما الى ذلك من شؤون الحياة ؛ وعلى اي حال فلم يكن التاريخ على مقياس واسع ، وانما هو محصور وبأضيق نطاق على هؤلاء الذين ينظمون الشعر ويؤرخون به ، ولكن هذا لا يعني ان هناك من يهتم

بسيرة احد من العامة او حتى الخاصة ، اللهم الا التاريخ لوفاة احد الحكام اوالتاريخ لحدث هام ، فلم تكن كتابة السيرة بمفهومها المتسع الآن لتعني احدا او تشغل بال احد ، وكان القوم في شغل عن الدنيا وما فيها ومن كان يضيء فحسبه ان يقول :

اني اضأت وكم خلق أتـوا ومضوا

كأنهم في حساب الارض ما خلقوا

ويكفي من الاضاءة هذا الشعاع الهادي دون معرفة ماهية هذا الشعاع ولا كيف اضاء هذا الانسان او ذاك وماهي العوامل المساعدة على تغذية الزيت المتقد فيـه ، لذلك كان من العسير علينا ان نجد جواباً لسؤالنا ما سبب جراح عبو من يوم وجوده كما يقول : هل انه مات ابوه وهو صغير فتحمل عبء الحياة وحده واحس مـرارة اليتم وبؤس الفقر ؟ ام انه كان حساسا مفرط الحس ازاء مجتمعه فشقى بحسه هـذا بين قوم قساة غلاظ ، يبدو لي انه كان قد فقد اباه فى صباه وتحمل من بعده كل ما يحسه اليتيم من قسوة الحياة ونحس الطالع، ولا شك ان أمه كثيراً ما شكت مـن الحياة وآلامها وهي تربي اولادها دون معيل ، وانطبع ذلك فى نفس الصبي انطباعاً مؤلماً وترك آثاره في نفسه عندما شب ومارس الحياة ، ارجـح ذلك لسببين : الاول اننا نعرف ان أمه كانـ ـ حية فى رواية سمعتها من الاستاذ ابراهيم الچلبي وسآتي على ذكرها فيما بعد ، والثاني هي هذه الحياة العنيفة القاسية ؟ فقـد كان عبو شقياً ولصاً ومقامراً كسرت يده وظل بها اثر الكسر فى حادثة وقعت له عندما كان يلعب الزار « في مقهى القزازين » وهي لعبة كانت شائعة في زمنه ، فبينما كان يلعب هو ومعـارفه الزار حتى داهمتهم « الجندرمة » فهربوا جميعاً ولاحقت الجندرمة عبـو فصعد الى

السطح فطاردوه فوقع فانكسرت يده وبقيت يده بعد التحامها متصلبة متخشبة ، فهل نفهم من ذلك انه فقد الرعاية ولم يجد من يعطيه تجربة الاب ودوره المهم في بنيان الاسرة وتركيبها فأعطاه هذا شعورا بعدم تناسق الحياة وعدم انتظامها ودفعه هـذا الشعور الى الاعتقاد بأنه لا يستطيع ان يأخذ من الحياة الا ما يغتصبه ، وان من ينكر عليه هذا المبدأ انما هو عدو لدود له ، وقد لاحظنا من قبل كم كان لاذعاً في خصومته ، وكم جاهر بما لم يكن احد يجاهر به ، كما اننا لا نجـده وحده شقياً ولصاً حسب ، فأخوه وهو اصغر منه سناً يحذو حذوه ويتعداه ويجاوزه فيمتدحـه ويحذره من خصومه ويغريه بالهرب من بلده ويزجي اليه النصيحة تلو النصيحة في كيفية البقاء بعيدا عن عيون الرقباء حتى قتل ولم تنفع معه النصائح فهو يقوم منـه مقام الاب الموجه، ولا شك في ان قتل اخيه ترك جراحاً كبيرة في نفس عبو فذل بعد بعد عز ولم يأبه له من كان يخشاه ويخشى سطوة اخيه وقد اعجز السلطة بماارتكب من قتول ، فقد كان الاخ الشقي يشد عضد اخيه ويسنده اسنادا كبيرا فى خصوماته مع اهل بلده فيخشاه الناس لسببين : لسلاطة لسانه ولانه مدعوم ايضاً بنصير قوي لا يهاب احداً ولا يتورع عن القتل ، ولكن ما هو السبب في اندفاعهما في هذا الطريق هل هما صنيعة المجتمع غذى فيهما هذا الميل مع وجود نزعاته لديهما ؟ او رجعنا الى خمسين سنة او اكثر لرأينا مدينة الموصل الصغيرة مسورة بأسوار عالية تغلق عند المساء فلا يدخلها احد ولا يخرج منها احد ، ولا يبرز في المساء الا من كان متصفاً برباطة الجأش وحسن المران على المبادرة ان اعترضه معترض ، فالازقة ضيقة ملتوية لا تكاد تتسع لمرور اكثر من شخصين اثنين تعقد فوقها قناطر تستغل

غرفاً فوقانية للدور ، هذه القناطر يسكنها الجن والعفاريت على ما حدثتنا به جداتنا وربما دخلها الانسان فانغلقت عليه فسلبه الجان ما يملك من مال وعقل فلا يصـــح اجتيازها نهاراً بأقل من شخصين يسرعان الخطى كيلا تنسد امامهما،ولا يجتازهاليلا الا من اوتي بسطة في الجسم والعقل ، والظلام ان حل فلا يبدده في هـــذه الازقة سوى ذبالات من زيت وضعت بين رأس درب ودرب لاتكاد تنيرقليلا حتى تنطفيء، ولذلك كان الليل مخيفاً ومرعباً لا يقتحمه الا من وطن نفسه على مـــلاقاة المتاعب يضاف الى ذلك قلة العسس ليلا وفقدان سيطرة الحكومة ان وجدت فلم يبق على الاهلين الا حماية انفسهم بأنفسهم ولا ريب في انه كانت هناك اسس تقوم عليها حياة الناس ، هذه الاسس تتمثل في ان كل محلة يوجد فيها اناس معروفون بحسن الرأي والتدبير والدين والمروءة،على هؤلاء يقع عبء انصاف المظلوم وحمل الظالم على الكف عن ظلمه ، كما كانت المحلة تعود على المحوزين بما تحتاج وتشد أزر اليتامى بالعطايا، فهناك تكافل اجتماعي بين اهل المحلة وكأنهم اسرة واحدة ، يتفقدون شؤونهم ويعنون بقضاء حوائج المحتاج منهم ولذلك كانت المحلة اشبه بقبيلة من حيث التكافل والتضامن والمقومات المستقلة ، وكان لكل محلة مقهى خاص بها يجتمع فيها رجالها يدخنون القليون والنرجيلة ويشربون القهوة المرة وتدور بينهم الاحاديث ، احاديث المحلة طبعاً من مات فيها ومن مرض ومن ولد ومن سافر وماذا حدث ، وكانت هذه الاخبار تنقل الى مقهى السوق ، واهم مقهى يلتم فيه رجـــال المدينة على تعدد المقاهي المهمة مقهى «الثوب» على ضفة نهر دجلة وهكذا يرجع السمار وقد وعت المدينة اخبارها ، كما وعت اخبار الرائحين والغادين ، ولان المحلة اشبه

بقبيلة او هي قبيلة استقرت في محلة فكثيراً ما تحصل منازعات بين صبيان محلتين متجاورتين تستخدم فيها الحجارة ، والصبان « المقلاع » وهو وضع حجر بين ضفيرتين مجدولتين من خيوط الصوف تدور بسرعة وقوة باليد ثم تطلق فتكون الحجارة اكثر بعدا وأشد مضاءاً ، وقد ينزل الرجال الى الميدان ان حمي الوطيس ، ان هذا الشعور بالاستقلال في المحلة والانقطاع عن التزاور بينها وبين غيرها جعل لكل محلة لهجة تنفرد بها .

وليس كل ذلك ما يتعلمه الصبيان في ازقة الموصل القديمة (فالحرامي والبوليص) لعبة مفضلة لديهم : وهي ان ينقسم الصبيان الى مجموعتين مجموعة خارجة على القانون واخرى تحمي القانون وتقبض على الجناة ، ولما كان حامي القانون يستخدم القوة والضرب والاهانةفتكون هذه اللعبة متسمة بالعنف والضرب بالايدي والاحزمة التي تشد على الثياب ، كما تعلم الازقة فيما تعلم المقامرة « فلعبة التبل » او لعبة « طقة وشبر » فالتبل هو بلور مكور على شكل كرة صغيرة يلعب بهذه الكرات الصغيرة على رهان ، والرهان يكون غالباً على اداة اللعب نفسها ، فمن استطاع لمس الكرة البلورية الصغيرة او قاربها بمقدار شبر ، فهو الذي يربحها وكثيراً ما تشتد النزاعات بين الصبية انفسهم من اجل الربح والخسارة وقد يتدخل الكبار فيما يحصل من نزاع(١)

(١) چوري : بينما تلعب الصبيان بالكعاب وقد خطوا لهم دائرة وضعوا كعابهم فيها اذ يهجم عليهم صبي اكبر منهم واقوى فيغتصب الكعاب التي في الدائرة قائلا (چوري) . چوري هذه محرفة من جيري . جير : فارسي حصة . نصيب ، قسمة . فكان يقول : هذه حصتي . وقد يستعمل الكبار ايضا هذه الكلمة فيقولون اثناء الكلام عن مال ما : وجاء فلان وقال جوري يعنون انه اخذ ما وجد من المال بأجمعه . كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل ص٦٥ للدكتور داود الجلبي .

ولما كان الاب هو رب الاسرة والشخص الذي يهاب ، فان الطفل تخيفه امه بأبيه فسلطانه لا يقاوم على اهل بيته وعشاؤه خاص، واقول عشاء لان الاب يكون في عمله منذ مطلع الفجر وحتى مغيب الشمس ، ولهذا تكون الاكلة الرئيسية وقت المغرب، فعند الظهر يوقد الحطب ويوضع الخشب وبعر الغنم الجاف وينصب القدر النحاسي على حمالات مسودة من كثرة الدخان ، وتنفخ المرأة في النار حتى تتقد ولا ترفع رأسها حتى ترى اللهب قد استطالت السنته فيما عيناها تسيل دموعاً ، وقد يؤخذ بقايا النار في الشتاء وتوضع في مواقد طينية لتشيع الدفء في الغرفة ، فاذا قاربت صلاة المغرب او كادت رجع الأب الى بيته فتناول عشاءه منفردا على الاكثر وبعد انتهائه يأكل أهله مما ابقاه ، ويندر ان يلاطف الاب ابناءه او اولاده ومن فعل ذلك فأن هيبته تقل في نظر زوجته واولاده، وليس معنى ذلك انه يفقد حنان الابوة فالحنان موفور ، ولكنه مغلف بافتعال الوقار ، والولد لا يصبح رجلا يستطيع مجالسة الرجال حتى سن الاربعين عندها يجوز له ان يرتاد المقاهي بشرط ان يكون بعيدا عن اصحاب ابيه لا يجالسهم او يجالسه، فاذا قعد لا يخوض فيما يخوضون به من احاديث او لا يدخن امامه وان مشى مشى خلفه بضع خطوات ، تلك قواعد لا يمكن اغفالها ومن اغفلها فلا يكون ولدا برآ بأبيه وأمه .

هذه لمسات سريعة تعطينا صورة عما يجب ان يتحلى به الرجل من قوة ليستطيع الوقوف على قدميه وليساهم فى الحياة العامة ، فالقوة البدنية والجرأة هما مرتكز هذه الحياة يشب عليها الطفل بين لداته واترابه ، ويتعلم في مدرسة الزقاق حياة الغصب والعنف ، فاذا اضفنا الى ما قدمناه فقدان الاب الموجه علمنا مدى ما تثيره الحياة

في نفس هذا الرجل من متاعب وما يحيط به سواء في بيته عندما يرى امه وهي تشكو وتبكي او خارج بيته عندما يجد ان الحياة لا تستقيم إلا على اسس القوة والعنف ، فقد جعل من نفسه بأعتباره اكبر اخوته وصياً عليهم وموجها لهم ، افلا يعني ذلك انه فقد اباه وهو صغير ؟

وقد يلقى ضوء على حياته وحياة اخيه سلو ماقيل في انه كان السبب في اندفاع سلو شقيق عبو في طريق الجريمة ذلك ان سلو كان مدعوا لدى « خضر الاعمى » ليلة زفافه ، وكان خضر هذا يضرب على الطبل وينفخ في المزمار رأيته اواخر ايامه ويجلس في عربة يجرها حصانان وتوضع في العربة لافتة يرسم عليها صورة المغني او المغنية للفت انظار الجمهور الى برامج السهرات في الملاهي والسينمات ، وعلى اي حال فبعد ان دارت الخمرة فى رؤوس القوم وكانت دار خضر الاعمى في سوق الصغير ـ محلة عبو السحمد علي اذ حدثت مشادة بين المحتفلين بليلة زفاف خضر ، فما كان من سلو ورفيق له الا ان افرغا حشوة مسدسيهما في رأس احد المدعوين فقتله ، والقي القبض عليهما ولكن سلو استطاع الافلات من السجن وفر هاربا ، ولكن صديقه قدم الى المحاكم وحكم بالاعدام ونفذ به وظل سلو هاربا يقطع الطرق ويزداد امعاناً في القتل والسلب ، وكان لفراره وحياته المرة اثر كبير فى نفس عبو فهو دائم التفكير فيه يقلب ليله ونهاره فى مصيره وما يكون ؟ يحذره من اعدائه ومن اصدقائه على حد سواء ، والاصوب انه كان يحذره من اصدقائه فأنه لم يكن يأمن جانب الصديق ، كما يبدو من مجموع شعره ، وينهاه عن الاقتراب من مدينة الموصل ، ويؤكد له لو ان وحيا يوحى اليه بأن يقترب منها وهو يعرف حنين

الانسان اوطنه فلا يستجيب لهذا الوحي ، فالصديق هو الذي يخون ويجر صديقه للموت فيما يبكي عليه ، وان هناك من يريده ان يدم في القبر ، ولكي يحاول ان يبث فيه روح العزيمة والجلد على المكروه يذكره مفتخراً بأنه اسد تند مخالبه بالجراح دماً ، وان الزمن اذا خانه على طول الايام فلا يندم على شيء حصل ومضى ذلك انه قد اقتص من الزمن الخائن فكم من دار ترك فيها البكاء والنواح .

چليت ونهاك لا تامن حدا وانواح
منزل يريدك ترد گرب الوطن وانوح
خانك صحيبك او جرك للذبح وانواح
واعليك ناسن تريدك بالگبر تندم
انتا اسد بالجروح امخالبك تندم
خانك زمانك على الايام لا تندم
انتا ابچم دار خليت البچا وانواح

كما يوصيه ويقول بأن صنعة الدهر هو الغدر فلست اول انسان يغدر بك فلا يغتر الانسان بأن يبسم له ويضحك معه ، فهو قد كاد له ونغص عيشه صباح مساء ، والدهر كافر يفوق في كفره فعل الرياح والقنا والسيوف ويكشر عن انياب الغدر فقد باد اهل الجود واهلكهم فليكف الامل من مودة من جفاه وابتسم له ، وليشد حزامه على بطنه وليعلم انه وحده فيعتمد على نفسه ولا يأمن صاحبا او خلا فان كل من يظفر به يجره للذبح وهو يضحك ويقول :

كار الدهر لا يغرك بالبسم واضحاك
كادك او نغص عيوشك عشيتك واضحاك
كافر يفوگ العوامل والوشچ واضحاك

كاشر نياب الغدر باد الجواد او هلك
كف الامل من مودة من جفاك او هلك
كرب حزومك اولا تامن صحيب أو هلك

كلمن ظفر بيك جرك للذبح واضحاك

وقد سمع سلو على ما يظهر نصيحة اخيه في الابتعاد عن مدينة الموصل فكان يذهب الى حلب مرة وينزل في مضارب شمر تارة اخرى حتى دعاه اجله فنزل في نواحي الموصل ، وهو ما نهي عنه ، حدثني الاستاذ (١) ابراهيم الچلبي أنه كان في حلب ومعه ثلاثة اشخاص آخرين بقصد التجارة ، وبينما هم جالسون فى المقهى هناك اذ رأوا شخصين تدل ملابسهم وكلامهم على أنهم من أهل الموصل قال: وكانت العادة أنهم انرأوا أناساً من أهل بلدتهم يتفقدون احوالهم ويساعدونهم اناحتاجوا الى مساعدة ، قال فنهضت وجئت اليهم مسلماً وجلست وسألتهم متى قدموا من الموصل وعما اذا كانوا يحتاجون شيئاً من المال ، فأجابوا بأنهم لا يحتاجون شيئاً وشكروهم على حسن مبادرتهم ، ولكنه رأى من هيأتهم الحاجة فأعطاهم أربعة مجيديات أو ما يساوي أربعة دنانير فى الوقت الحاضر ، وقد مانعوا فى أخذها بادىء الأمر إلا اذا عرفوا اسمه وأسم أبيه ومحلته ليردوها اليه اذا انقلبوا الى أهلهم ،

(١) صاحب جريدة فتى العرب الموصلية .

وعرف انه سلو شقيق عبو ، قال ومرت الأيام ونسيت سلو ورفاقه ، وإذ أنا نائم فى الليل وفى منتصفه تقريباً اذ سمعت طرقاً على الباب فخالجني شك فيمن يكون الطارق في هذا الوقت المتأخر من الليل قال : نزلت وسألت من الطارق ؟ فقال افتح الباب أنا سلو ولم يخطر بباله من هو سلو ، قال ففتحت الباب واذا أنا برجل مدجج بالسلاح بيده بندقية وفي حزامه مسدس وخنجر . قال فأمسك بي وقبلني وقال لي : لقد فتشت عن داركم حتى وجدتها وأخرج من جيبه اربعة مجيديات وأصر علي فى أخذها منه، وقال إني لا أنسى المعروف فى وقت كنا بأمس الحاجة الى المال ، والتفت إلي بعد ذلك وقال :هل لك أعداء تريد الانتقام منهم فأنا أخوك ونصيرك ، لك الأمر وعلي التنفيذ، قلت لا ، ليس لي اعداء فودعني وانصرف . قال ومرت الأيام وكنت بين قبائل شمر واذا بسلو يسلم علي وعرفت ان الحكومة تلاحقه وانه يتنقل فى القفار حيث لا تستطيع الحكومة ممارسة أي سيادة عليها . وبعد سنتين رجعت وعرفت ان سلو قد قتل ، وكان قد اودع لدي ليرتين ذهباً فسألت عمن يستطيع ايصالها الى اهله فعرفت رجلا من من أهله فسلمتها اليه حتى جاء في ذات يوم رجل يلبس العقال وأنا في السوق فسلم علي وقال أنت ابراهيم قلت نعم فقال أنا عبو شقيق سلو وإني اذ اشكرك على رد الامانة الى أم عجوز فقيرة في وقت عز فيه النصير وعافنا الخليل أرجو ان تقبلني عبداً لك ، قال : وكان يتردد علي بين حين وآخر وقد خطر لي ان اسجل زجله بعد دخوله دار العجزة وذهبت اليه ولكني لم استطع ذلك لشيخوخته وعجزه .

اننا نرى من هذا ان الوفاء صفة لازمة لعبو وشقيقه وهما على أي حال ليس شراً محضاً كما يتصور بعض الناس وانما هم شأن الناس جميعا ، فيهم تلك الصفات التي

تلازم البشر وقد يرجحون في بعض الاحيان في التزام نوع من العلاقات البرة لمن يقابلهم بالبر ويمنحهم ثقة بالنفس وترينا أيضا مدى ما اصاب عبو بعد مقتل اخيه من ذل وكيف تخلى عنه اصدقاؤه ومعارفه ، كما اننا نلاحظ فرط حبه لاخيه وفي هذا الزهيري وهو يعتذر اليه من زلة بدرت منه اعتذارا رقيقا مؤكدا له رابطة الدم ووشيجة الاخوة يطلب منه ان يغفر زلته ويلح في طلب مسامحته عما ارتكب مذكرا أياه بأنه شقيقه من لحمه ودمه ، وهل يرضى الشقيق الذل لشقيقه وهو يده اليمين على الشدائد وشماله يتبين لنا مدى حرص عبو عليه واخلاصه له ،

يا خوي شنهو السبب صديت واش مالك
واخلاف خيك شلك بالحال واش مالك
ان چان صديت عني اش عاد واش مالك
ماني شجيجك او من لحمك اوعظمك اودم
وان چان زليت سامح لي ذنوبي ودم
ترضى علي المذلا يا بن ابويا ودم
وآني يمينك على الشدات واشمالك

ولا بد لنا استكمالا لنهاية سلو ان نذكر حادثة قتله ، ذلك ان عبو لم يتاثر بحادثة حدثت له ولم ينفعل بها ولم يحب شخصا كما احب اخاه .

مقتل اخيـــه :

في زمن الوالي التركي سليمان نظيف باشا ســـنة ١٩١٣ ـــ ١٩١٥ جدت الحكومة في طلبه ، فالتجأ الى غابة كثيفة قرب المدينة تقطـــع منهـا الاحطاب والاخشاب ، وتظل مأوى للذئاب والمفترس من الحيوانات ، ولما كثر عليه الطلب حفر له بين الادغال نفقاً فاذا جاء رجال الامن واحاطوا بالمنطقة هرب الى النفق، واختبأ في الادغال الكثيفة حتى يغشاه الليل ويعود الرجال من حيث أتوا ، قيل انـه كانت امرأة جميلة لرجل يعمل بستانياً في شواطيء دجلة ايام الصيف فـــيرزع « شاروقاً » أو « خضرة » على حد تعبير أهل الموصل لما يزرع على شواطىء دجلة ديماً من الخضار كالخيار والبطيخ فرآها «سلو» فأعجبته فراودها فامتنعت عليه ، ولما عاد زوجها اخبرته بما حدث فقال « أنا له » فذهب في الصباح الباكر الى الوالي هو وجماعة من « ألبو حمد » قتل سلو منهم رجلين ، وقالوا له دعنا نقتله نحن فأن هذا الشقي ان عرف ان رجالاً من الشرطة يتعقبونه فأنه يسرع الى الاختفاء ولايقدرون على الأمساك به وقتله ، فقال لهم الوالي ان الشرطة معكم فتعاونوا معهـا في القضـاء عليه لا لشيء ولكن لهيبة الحكومة ، لكي لا يقال بأنها عجزت عن تعقيب شـــقي ، وهكذا دبر له كمين وبواسطة المرأة ، اذ بينما وعدته على ان يأتي اليها في الصبـاح بعد مغادرة زوجها الى السوق لبيع محصوله كان الزوج من وراء الاعشاب كامناً ومن ورائه رجال الشرطة ، فلما اطمئن سلو الى ان زوجها قد ذهب برز من مخبئـه ، فاستمهلته بأن زوجها سوف لن يعود قبل حلول الظلام . وطلبت منه ان ينزع ملابسه المتسخة لتغسلها له ، وان يذهب الى النهر فيستحم ، ولتقص له شعر لحيته ورأســه

وتقلم اظافره ، فأنه لبقائه في هذه الغابة الكثيفة وعدم تمكنه من النزول الى المدينة فقد اصبح كالوحش بطول شعره وتلبده ، وطول اظافره واتساخ ثيابه ، ولما اطمئن الى كلماتها نزع ثيابه والقى ببندقيته فعاجله زوجها بضربة فأس على رأسه فخر صريعاً لتوه وجاء رجال الشرطة ، ووضعوا جثته على حمار فكان رأسه من جهة ورجلاه من الجهة الاخرى يرتطمان بالارض حتى انتهوا الى مقر الوالي فأعطى الذين ساهموا في قتله هدايا من النقود .

إن هذه المرأة بذكائها وقدرتها استطاعت ان تدبر مقتله وكان مصرعه اسطورة عجز عنها كل الذين حاولوا قتله وهي بذلك اعطت المثل لما يمكن ان تقوم بـــه المرأة من دور فعال وايجابي ، وبذلك انتهت حياته الحافلة المليئة بالاجرام .

تلك حياة « سلو » تنطوي من حيث قدر عبو ولكن الموت كان يدعـوه ويغلق امامه الطريق ليقصم من بعده ظهر اخيه قصماً ، فلم تسر حياته بعـد مصرعه حيـاة عز كما كان يريد ، وفقد سطوته على الناس ، فان اليد القوية والسند الذي كان يستند اليه قد انهار ، وتبدلت من بعد موت اخيه الحياة فلم تعد حياته المعتادة . وكان العالم آنذاك تخنقه الحرب العالمية الاولى وتنذر بشر مستطير ، فالرجال يستنفرون ليذهبوا وقود النار الملتهبة ، ففي كل بيت يجلس النساء ينتحبن ويبكين الرجال الذاهبين الى الحرب دون رجعة ، ويحس الناس مأساة الحرب وهي تلتهم الرجال فيقولون عن ابنائهم انهم ذهبوا الى « سفر بر » اي سفروا براً الى ميادين القتال ، ويؤرخ بعام السفر هذا كحدث مؤلم يقطر دماً وينكأ جرحا ، ويبقى ذكرى « طابور

أبو شخاطة » وهو طابور من الرجال المستنفرين الى القتال ليلآ كانت امهاتهم واهليهم يودعونهم ويفتشون عنهم فى ضوء عيدان ثقاب الكبريت ، يبقى هذا الطابور رمزاً للمأساة الكبيرة في حياة الموصل ، وتتمزق التقاليد والعادات وتؤدي الحرب الى تقطيع البلاد الاسلامية وتدخل جيوش الاحتلال هذه البلاد التي كانت مصانة من دنس أقدامهم ، ويغدق الانكليز بعدالمجاعة والقحط الذي ذهب بمئات الانفس حتى أكل الناس القطط والكلاب ، ولحم البشر (١) ، أغدقوا مئات الآلاف من النقود وجلبوا القمح ، ويقف بعض وجوه المدينة مرحبين بمقدمهم فيكافؤهم الانكليز لقاء ترحيبهم بالمال والمناصب وتضحى حياة عبو كئيبة خالية مما كانت تحفل به ، وهو اذ يتوقع هذا الشر المستطير يسجل هذا التداعي بعد انتهاء الخلافة الاسلاميةفيناجي صاحبه ويقول ان المصائب تصب على الخلائق ، والجور والضيم والعثار أصبح لازماً لهم ، وان الزمن قد نوى ان يظهر الفضائح ويبدي كل بدعة ذميمة ، وان الحصون والقصور المشيدة أمالها الدهر ، وعليه فأن الدنيا خربت بعد عمران ، والذي يقول انها ستعمر بعد هذا الخراب فأنه واهم ، ولا شك فأنه يقصد ما أصاب الامة الاسلامية وما يرافق تمزق وحدتها الجغرافية من تمزق فى الاخلاق العامة وتبدل فى معايير القيم .

---

(١) كان رجل يدعى « عبود » يستدرج الاطفال الصغار هو وزوجته الى داره ويذبحهم ويعمل من لحمهم طعاماً ـ وكان هذا المجرم طباخاً ـ حتى اخبرت ابنته الصغيرة السلطات بما يرتكبه فحوكم هو وامرأته وشنقا . المؤلف

يا صاح صبت مصايب على الخلايـگ وهم
لوعات مع جور مع ضيم وعثاير وهم
الوكت ناوي على أهلا بالفضـايح وهم

مظهر بدايع ذميما موحشا مالهـا
عير الگبايح او تذهب للخلگ مـالها
اگصور چانت حصينا امشيدا مالهـــا
دنياك خربت او من گال عمرت وهم

جوانب من تفكيره :

بينا من قبل جانباً من فكر عبو وهو كما رأينا يعطيا خلاصة تجاربه في حياته العنيفة الحافلة ، حياته الكثيفة ، حياة الزقاق ، والمقاهي والعبث ، حياة العنف والدم ، حياة المجتمع بكل مظاهره القاسية منغمساً ومشاركا في عبثه وعنفه ، كما ينغمس فى مجونه وجوه المنغلق حيناً ، والمنفتح حينا آخر ، فما هو رأيه في الدين ، فقـــد عافه الناس لرأيه في الدين خاصة ، ان الرأي السائد عنه هو انه ملحد كافر لا يؤمن بدين ، اننا لا نستطيع ان نقول انه ملحد على الاطلاق كما يقول الناس ، ولا نقول انه مؤمـــن كما يؤمن الرجل المتدين في زمنه ، وقد قلت من قبل ، انه يمثل تيارا فكرياً آخـر ، وفكره هذا يرجع الى نظره فى الحياة والكون ، فهو لم ير الحياة كما رآها أهل الورع والتقوى بأن تكون نسكا وعبادة ، وتلقي امور الدين كما يأخذها عـامة الناس دون امعان فكر وتقليب نظر في مظاهر الحياة بألوانها وأشكالها ، فاذا كان كل انسان ابن بيئته ومجتمعه وزمنه ، فهو قمة أخرى تعاكس التيـار العام ، وليس عبو بدعاً في حياة المجتمعات فقد شهدت مجتمعاتنا عبر التاريخ حركات فكرية ذات طابع متشكك عابث أو منكر تمام الانكار وقد اخذت بعض هذه الحركات شكل التنظيم الحزبي كحركات الباطنية واخوان الصفا او حركات مذهبية كالصوفية ذات التجريد المتجسد كما يمثله الحلاج الذي قتل متهما بالزندقة والالحاد ، وعليه فأن عبو كان انسانا يفكر واعلن تفكيره كما يعتقد دون خوف او وجل ، ولا ريب فى انه جادل اهـل الدين جدالاً عنيفا ولم يقنع بما قنعوا به من ايمان مطلق لا تشوبه شائبة مـن شك ، ولعله حاول تشكيك الناس فيما يعتقدون وارادهم ان يعتقدوا كما يعتقد وقد خرج مـن

ذلك بنتيجة واحدة هو انه لم يستطع ان يقنع أهل الدين بما اراد فشتموه وحذروا الناس من أفكاره وآثامه ، وقد يكون اول ما دفعه الى انكار دين الناس هو انه يريد ان تكون الحياة فيها من العدل أكثر من الجور ، ومن الانصاف اكثر من الظلم ، فهو رأى حياة اهل الدين لم تخل من الظلم ، والدين والقرآن الكريم يحث على مكارم الاخلاق وانصاف المظلوم من الظالم ، ولكن المشاهد تتكرر امامه مؤكدة ان كثيراً من أهل الدين يخالفون معتقداتهم عندما يمارسون الحياة العامة فدفعه هذا الى نقدهم والاستخفاف بهم منكراً عليهم إتيان ما ينهون عنه وهم اولى من يطبق تعاليم الدين وما يأمر به الكتاب من احقاق الحق والاتجاه بالحياة اتجاها برا رحيما ، ودودا حانيا ، وهو اذ يرى الظلم ينتفض صارخا بأنه لم يتفيأ بظلال بيت اللئيم ولم يشهر سلاحا على كسير مهيض الجناح ، وانه لا يصدر بهذا الا عن ضميره وحده فهو لم يلتزم كما التزم غيره بكتاب يحثه على التزام هذا المنهج بخلاف الآخرين الذين يظلمون وعندهم كتاب ينهاهم عن الظلم فهو يفضل من يدعي البر ويفعل نقيضه ، ويجاوز بأشواط ضمائر هؤلاء الذين يزيفون حقائق الامور ويتخذون من أقوالهم شراكا لاصطياد الناس البسطاء ، أفلا يدل هذا على معاناة مرة قاساها من ادعياء الاخلاق ، وهم اذ يخلون الى انفسهم لا يخلون الا مع شياطين الافكار المحمومة سما ، وهم يستبيحون الحرمات متسترين عليها او مبررين لها بهذا التخريج او ذاك فاذا وقف متأملاً مقارنا بين نفسه وبين غيره مع فارق في الالتزام بدا وكأنه يدين الظلم والظالمين منطلقا من مفترق مغاير ولكنه بالنتيجة يؤدي اليه وهو ارادة دفع الظلم والشر وهو ما أراده الدين .

بظلال بيت اللئيم العفن ما اجرينا
واعلى الذليل الكسير اسلاح ما اجرينا
ياما ولينا او عنا ليه ما أجرينـــا
لو چان مطلوب لينا احگوگ وديانا
وابگاع گفـــرا اگطاع وديانا
الناس تظلم وعدهـــا اچتاب وديانا
اوحنا بلا اچتاب جور او ظلم ما اجرينا

وقد ترتب على ذلك انه جاهر بما توصل اليه فهو يرى ان الدنيا ليس لها من نهاية ومن حد تقف عنده ،وهي مفتوحة تستقبل البشر وجميع المخلوقات وتفنيهم وتأتي بغيرهم ، فلا يجمح خيال البشر بمن ينبيء بعلوم عن الغيب لا تدخل في العقل ، وان نصح من ينصح بأن بعثاً سيتم ، وان الاجساد ستعود بعد البلى انما ينصح بباطـل ، وخسارة من يصوم ويصلي خسارة لا تعوض ، هذا رأيه على ما اعتقد اولاً ، وقدطرأ عليه تغيير بعد ذلك يقول :

يا صاح دنياك ملها من نهايا وحد
لاچن دشرا او كلمن عمر ابهـا وحد
اياك فكرك يتيه ابها وظنك وحد
ينبيك بعلوم لا تدخل عگول او ترد
واياك تاخذ نصايح من ضلول او ترد
هيهات بعد الممات اتعود حي او ترد
خسران من صام واللي بالمساجد وحد

ان هذا التغيير ينبع من اعتراف يسجل فارقاً بين الروح والجسد فهو يرى ان الانسان مفطور على حب اللهو والاستمتاع بمباهج الحياة وزخارفها ، وان حب الطرب خاصية انسانية اصيلة ، أما الدهر فثابت مكانه لا يتحرك ، والبشر يمرون أفواجاً من أمامه ويسرعون الخطا الى الهاوية والفناء ، فالشعور بالزمن نتيجة احساس الانسان ذاته به ، فالشمس والارض لا تدرك مسارها ، وانما يدرك الانسان وحده هذا المسار الزمني ، فاذا مات الانسان وغمضت عيونه فما جدوى البر له وهو لا يحس وخز الابر ؟ فبانفصال الروح عنه يتحلل الى عناصره الطبيعية ، فالروح تذهب الى النور والجسد يرجع ماء وتراباً ، كما كان اولا ، وهنا اعتراف واضح بأن الانسان مكون من طبيعتين طبيعة أرضية وأخرى نورانية فما كان نورا يعود الى النور وماكان تراباً يرجع الى التراب ،

الانسان مألوف گلبا والنظر للهوى
والراس للكيف مايل والفكر للهوى
الدهر ثابت مكانا والبشر للهوى

والميت لو مات واعيونا اغمضت للگبر
منهو اللي ايبرا او لمسا ما يحس للگبر
الروح للنور تذهب والجسد للـــگبر
والماي للماي يرجع والهوى للهوى

وهو يشعر شعورا أصيلا ومنفعلاً بأحساس عميق لاولئك الناس الذين نذروا انفسهم لله نذراً خالصاً لا تشوبه ريبة او يحيطه شك ، فهو يقدر عبادتهم لله حـــق

العبادة ويثني عليهم ثناء رحيماً عطوفاً ، وكأني به يريد ان يكون دعاة الدين في مستوى الدين عمقا وصفاء وبعداً عن الدنايا فهو قد رثى (١) الحاج يوسف الرضواني ، وهو علم من اعلام الدين والنسك والعبادة رثاه رثاء من يشفق على الفضل والرحمة المتمثلة به وهي توارى التراب ، ويصفه بأن البشر كانت تأوي اليه، وبفقده فقد البائسون والمظلومون حصنا منيعاً كانوا يأوون اليه وبرحيله غاب القمر من سماء الموصل وزادت ظلمتها ، فهو اذن يحس احساسا عميقا بالينابيع الثرة التي يفجرها الدين في نفوس هؤلاء الناس البررة بدينهم ، الملتزمة عقولهم ونفوسهم به التزاما حيا وخالصا للدين وحده يقول في رثاء الحاج يوسف الرضواني وهو من اقطاب الورع العميق ما يلي :

عين الندى حين غارت وين ظلماها
منها البشر چان يروى او زاد ظلماها
دنياك عاين گطعها او شوف ظلماها

هدمت حصن چان كل مظلوم يا ويلا
والبايس اليوم منهو العاد يا ويلا
الحاج يوسف رحل والبلد يا ويلا
غاب الگمر من سماها او زاد ظلماها

(١) الحاج يوسف الرضواني توفي سنة ١٣٦٧ هـ وكان يعمل في التجارة ، وتلقى علومه الدينية على يد عمه الحاج محمد افندي الرضواني .

وهو يمدح الملا عثمان الموصلي[1] القاري الموهوب والشاعر ويصف لسانه بأنه ينبوع عذب لا ينقطع عن الجريان بأعذب الالفاظ بما يملأ الاسماع والقلوب خشية وطرباً وحباً ، ومعروف ان الملا عثمان الموصلي صوفي النزعة ، اتخذ الطريقة المولوية طريقاً له ومذهباً في الحياة ، ويقال ان الفاظه الجميلة يربح من يشتريها أجراً ، ولو ان الاماني تتحقق فانه يروم الا يحول زمنه عن الهناء والصفاء ، ويصير له خلاً وصاحبا وصفيا له ، فهويفسر الدين تفسيراً حيا يبعده عن صدأ الجمود ويعيد اليه حيوية شفافة تقترن بالعمل الصادق له وبالنظرة السمحة البرة التي جاء بها فاذا التزم موقف الالحاد على ما يبدو فما كان ذلك الا لسبب واحد هو ما رآه من تزمت

---

(١) الملا عثمان لم يلمع نجم كباقي المغنين الذين اشتهروا بعذوبة صوتهم وفن غنائهم في بغداد حسب وانما اشرق هذا النجم في مدن اخرى غير بغداد وبخاصة الموصل فقد ظهر فيها نخبة من المغنين، ومن هؤلاء الملا عثمان ، اما نسبه فهو الملا عثمان بن الحاج عبدالله بن الحاج فتحي بن عليوي الموصلي من عائلة الطحان في الموصل ، ولد سنة ١٣٧١ هـ ١٨٥٤ م . ولما بلغ أشده توفي والده وكان عمره آنذاك سبع سنوات فتربى لدى السيد محمود العمري وقد فقد بصره وهو حديث السن حيث اصيب بمرض الجدري ثم سافر الى بيروت ومكث هناك ثلاثة أشهر ، وابدى ابهى فنه حتى نال اعجاب المغنين وسافر الى استنبول وجعله السلطان رئيس محفل قراء جامع ايا صوفيا ، ورحل الى مصر وقد تعلم الغناء المصري ، ورحل الى استنبول وعين فيها حتى الانقلاب الدستوري ثم ترك استنبول وسكن بغداد ، سكن في جامع الصاغة وقد ألف كتباً كثيرة منها طراز المذهب في الادب ، ٢ ـ الابكار الحسان ، ٣ ـ التوجع الاكبر بحادثة الازهر ، ٤ ـ رسالة في تخميس البوصيري ، ٥ ـ كتاب نباتي ، ٦ ـ كتاب في التصوف ، كما انه نقح ديوان عبد الباقي العمري الترياق الفاروقي ، وأما وفاته فكانت سنة ١٣٤١ هـ ١٩٢٣ م ودفن في مقبرة الغزالي ببغداد واتخذ الطريقة المولوية لواخر حياته وكان حاضر البديهة سريع الخاطر فذا في معرفة الناس بمجرد اللمس والصوت . المقامات ص ١٦ ج١ شعوبي ابراهيم وانظر الى مقالتين نشرتهما تباعا في جريدة فتى العرب سنة ١٩٦٧ .

صارخ غلفت به حياة الموصل وابتعدث بهذا التزمت عن جوهر الدين وهو الحب الودود العطوف الذي يقود البشر الى جادة رحبة خيرة يقول :

عثمان ينبسع لسانك ماي عذبن يجر
بلفاظ حسنات يربح من شراهن يجر
لو چان مطلوب من رام الاماني يجر

چنت اندعي لا تحول اعن الهنا وصفاك
واصير الك عون خل اموالفك وصفاك
يا مونس الانس واطيور السما وصفاك
جوهر عزيز اللي ضيعك الف حسرا يجر

فاندفع الى اللهو والى نقد من يدعي النسك والدين ، اني أتصوره بما يمثله من التيار المعاكس فى التفكير قد شط شططا كبيراً ، ولكن هذا الشطط له من الاثارات النفسية والاجتماعية ما يبرره ، وهنا لا اريد تبريراً فى غير محله ، فهـو نفسه لم يرد ما يبرر تفكيره ، ولم يخطر ذلك لهعلى بال ، وانما هو يفكر وينظم ما يفكر فيه ،فاذا اسرف على نفسه فى موقفه ، فلأنه يريد مناهضة الاعتقاد السائد لدى العامـة ، لكي تعيد تقييم فكرها تقييماً فيه انفتاح ورجوع الى جوهر الدين ، او على الاقـل بذر بذرة الشك فى نفوسهم ليراجعوا افكارهم من جديد ، ومن هذا المنطلق النفسي نستطيع ان نفسر موقفهتفسيراً أقرب الى الانصاف من أن نكيل له التهم ، ذلكانها ان بدت مستندة الى وقائع من كلامه وشعره فهي يعوزها الباعث النفسي ، وبمعرفته يتضح بجلاء مسار تفكيره مرتكزاً الى واقعهالمعاش ، ولعل الظلم كل الظلم ان

نأخذ الأمور على علاتها دون تفسير ، فقد جاء فى تقرير دار العجزة « انه ملحد وان اسمه الحقيقي عبدالله فقلبه الى عبو » . والواقع غير هذا فأن اسم التحبيب لعبدالله لدى أهل الموصل هو « عبو » وكذلك سليم او سليمان تحبب فتصير « سلو » ومثلها « قدو » لعبد القادر « وجلو » لعبد الجليل ، فهل نسمي اصحاب هؤلاء الاسماء المحببة ملحدين أو كافرين لأنهم حذفوا اسم الجلالة من اسمائهم ، أو حذفت منهم حتى اصبحت علماً عليهم ، وهو ما لم يقل به أحد ، واني اتصلت بمن كان يحب زجله ويجلس معه فكانوا يدعونه بالعم « عبدالله » تكريماً له . ولكن الناس تظلم والشهرة آفة كما يقولون ، هذا وقد زاره السيد حامد الراوي الشاعر الشعبي فى دار العجزة فلما رآه في شيخوخته وما صار اليه اشفق عليه ورق له ونظم فيه هذا الزهيري :

يا وسفتي اعليك عبدالله المحن تجرا
واعليك دمع البيابي امن الجفن تجرا
ما انصفك يوم دهرك وامنحك تجرا

ولا گريت علم الشريعه والصحف خاتمه
نظمك رثالك او ما ضيلك دهر خاتمه
وان چان ربك چتبلك بالعجز خاتمه

سلم امورك اودعها اشما جرت تجرى

قال فضرب على رأسه وتشهد وبكى ، كما نلاحظ انه سماه عبدالله تكريماً له .

حدثني السيد محمد حنتوش(١) مختار محلة باب الطوب أنه زاره ذات يوم في دار العجزة وسأله كيف تجد نفسك في هذه الدار ؟ قال اجد نفسي من ناحية المأكل والمشرب والنظافة على احسن حال ، ولكني ينطبق علي قول سليمان في الهدهد « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه او ليأتيني بسلطان مبين » فقال ان المفسرين يقولون في قول سليمان في عذاب الهدهد انه يضعه مع اطيار ليسوا من جنسه ، وهذا هو العذاب البالغ الألم ، فأني مع اناس في هذه الدار ليسوا من جنسي ، روى له ذلك عندما رأى الى جانبه رجلاً عاجزاً مسيحياً يدعى أبلحد وغلب عليه اسم « بحودي » تحبيباً ، وبحودي هذا كان يجيد غناء المقام العراقي ، وكان يعمل حداداً ثم انصرف الى الغناء وقد حاول عبو ان يحفظه قسماً من زجله فكلما يرجع عليه ويقول له هل حفظت يقول : نعم ، فلما يطلب منه ان يعيد ما حفظه يتلكأ ولا يجيب فيقول له : ان دماغك من حجر .

إنه إذن كان يعرف القرآن كما يعرف تفسيره ، سمع ذلك من الناس ومن جداله مع أهل الدين ، ومن يجادل في الدين أو يذهب مذهباً آخر عن تفكير مجتمعه لا ريب في انه يعرف تفكيره ، وإلا فلا معنى لاتخاذه موقفاً مغايراً لموقف مجتمعه ، فاذا اضفنا الى ذلك انه كان له علم بالمقام العراقي وانه يجيده غناء واداء ، كما ورد في تقرير دار العجزة ولا يبخل في اسماعه لمن يطلب منه ذلك وانه كثيراً

---

(١) محمد حنتوش ولد سنة ١٣٠٠ هـ كان يعمل فراء وله واسع بالشعر الشعبي والضرب على الدف وقراءة التنزيلات ، وهو ممن التزم عبو التزام صداقة وود وقد افادني بما زودني به من موالاته ، وبكثير من سيرة الملا عثمان الموصلي في اخريات ايامه ، وكان مختاراً لمحلة باب الطوب توفي سنة ١٩٦٨ م . المؤلف

ما يسمع المغني ناظم الغزالي وينتقد أداءه للمقامات ، عرفنا انه كان ذواقة للنغم الاصيل ، يستمع الى تنزيلات الملاعثمان الموصلي ويطرب لأدائه ، فهو ذو اذن مرهفة وذو حس شفاف ولذلك نراه يتخذ النقد لأهل النسك ، وكان هـذا النقد يدور فى نطاق الأنس والطرب ، والموصل على ما كانت عليه من دين وورع في زمن عبوالأول إلا انها قضت فترةمن اخصب فترات حياتها من ناحية الغناء فظهر فيها طبقات مختلفـة من قراء المقام فكان قارىء المقام الموصلي « حسين الصفو »[1] والقاري الشهير الملا عثمان الموصلي ، وسيد احمد [2] الملقب « بأبن الكفر » هؤلاء كانوا يملأون اسماع الموصل غناء وطرباً يضاف لهؤلاء المشاهير في القراءة المبرزين ممن لهم اصوات حسنة من اصحاب الحرف كالحاكة والحذائين والنجارين ممن كانوا يستعينون على اداء عملهم بالغناء للترفيه عن انفسهم اذ لم يكن المذياع قد وجد بعد ليقضي عـلى هذا التراث ، فهذه الناشئة من الشباب تستمع وتقلد ثم تبدع ، وتجد في جو الموصل فى الربيـع والخريف والصيف على شواطيء دجلة الجميل متنفساً رائعاً للمشاركة في احياء ليالي الطرب والأنس وكذلك في حمام العليل حيث يخلع المصطافون هناك بعض وقارهم

---

(١) حسين علي الصفو كان رحمه الله من قراء المقام في الموصل المشهورين ، تعلم اصول المقام من المرحوم والده ، وقد غنى في مقاهي الموصل مع حسن الشكرچي بن محمـد بن حسن البياتي المولود في بغداد سنة ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م والمتوفي سنة ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م . انظر المقـامة الموصلية ص ٢١ من كتاب المقامات جـ١ بقلم شعوبي ابراهيم .

(٢) أحمد عبد القادر : وهو من قراء الموصل المشهورين له اسطوانات مسجلة تذاع من اذاعـة الجمهورية العراقية . ولد هذا المغني سنة ١٢٩٤ هـ ١٨٧٧ م وتوفي سنة ١٣٦٠ هـ ١٩٤١ م ودفن في الموصل ـ المقامات بقلم شعوبي ابراهيم جـ١ ص ٢٤ ، وانظر في ذلـك ص ٧٨ من كتاب الدكتور عادل البكري ـ عثمان الموصلي الموسيقار الشاعر المتصوف ـ .

وينسون في غمرة الراحة عنت الموصل ، علمنا انه بجانب المساجد التي كان القراء يجودون فيها اصواتهم ويحسنون أداءهم كان الى جانبهم هؤلاء الآخرون ممن يقضون سهراتهم في جو بعيد عن جو الدين وان كان يرتبط به ، ولهذا نراه يكثر من الاشارة الى عدم ذكر المساجد ، هذه الرابطة التي كانت تشدهم شداً الى جوها ، فهو يدعو صاحبه بأن يعز نفسه ولا يذلها وان يمنح نفسه اللذة ما يستطيع فى الرياض والحدائق ويحذره من قضاء عمره بالسيف وما يجره من قتال ونزال ويترك وصف الخيل هذا في السنة الرابعة من عمره وهذا مسن ، فان النتيجة انه يخسر دهره ، ويطلب من صاحبه ان يزيد في الطرب والغناء ويغتنم لذة الحياة فخلاف الموت لا عودة ، وكيف يثبت الوعيد بالنار والترغيب بالجنة ؟

عز النفس واشتري اللذات واجناها
واتبع هوى من تفوز ابروض واجناها
إياك تـقضي العمر بالسيف واجناهـا
واتواصف الخيل ذا رابع وذا عود
وتروح خسران دهرك يا مسودن عود
زيد الطرب لا تظن اخلاف موتك عود
اشلون تثبت وعيد النار واجناهـا

فهو اذن يريد اللذة الحسية ، واغتنام الفرصة ما وسعته الحيلة ، والخمر والغناء والطرب وسيلة للتخلص من احساسه بعبث الحياة .

والموصل فى الربيع نزهة تشتاق اليها النفوس وحتى الحجر تدب فيها الحيـــاة

ويخرج الناس الى متنزهاتهم في الأرض الخلاء المخضرة ، يتركون دورهم ويضربون الخيام اطراف المدينة « باشطابيا » و « قره سراي » وغيرها حيث النهـــر العظيم وروائح الازهار البرية تفوح وتغمر النفوس بشذاها ، وتفوح رائحة الارض الطيبة بعد مزن المطر ويهب النسيم عليلاً بليلاً مشبعاً برائحة السنابل ، فمنهم مـــن يقرأ القرآن ويتلو السيرة النبوية على الدفوف ويخوض في احاديث الدين والأدب ومنهم من ينصرف مغتنماً الفرصة فيعقد مجالس اللهو والغناء . واذا رأينا اشارة الى وصف الخيل فان تقليداً كان في الموصل وانقرض ، هو ان الفرسان كانوا يتبارون في سباق الخيل وكانت لهم مناطق من الموصل تواضعوا على المباراة فيها ، فان أرض المنطـرد وهي محلة الدواسة الآن ، والأرض على ضفة نهر دجلة اسفل مقام يحي أبي القاسم، وأرض البيادر أسفل مقام النبي يونس كلها كانت ميادين للهواة من الفرسان وراكبي الخيل ، ولا شك فى أن هذه الهواية كانت تجد لدى الشباب والشيوخ على حد سواء هوى كبيراً وميداناً للمباهاة بالقوة ، والعناية بالخيل وتأصيلها والفخر بأنسابها ، وقد انقرضت هذه الهواية مع ما انقرض مـن مظاهر الحياة فى الموصل ، وكانت المقاهي هي الأخرى محلات للتسلية فتقرأ فيها العنترية والقصص ، كما كان بعض اصحاب المقاهي يستأجرون بعض قراء المقام ليقرأوا في مقاهيهم ما يتسع له الوقت آنذاك ، وكانت موسيقى الجيش تعزف أيام العطل الرسمية ويجد الناس فى الاستماع لها لذة كبيرة ، كل هذا يكون مجالي يرتع بها هؤلاء يدفعون عن انفسهم السأم متى وجد الى انفسهم سبيلا ، اذا اخذنا ما تقدم بنظر الاعتبار فأنه يحاسب الزاهد حساباً من وجهة نظر مختلفة عن نظر الزاهد نفسه ، فهو يقول له ماذا حصلت أيها الزاهد من

زهدك ونسكك غير انك سهرت وحرمت نفسك لذة الفراش ونعمة النساء ، أهو حظك الذي خانك ؟ أم أنه سرح عنك ونسيك ؟ فأنت تعتقد ان الميت بعد مماته يرد النار أو الجنة ، هذا الاعتقاد خلاك بأوهام كأنما اصابتك منه جنة ، وتقول ان كتب الديانة جاءتنا من السماء فقضيت بهم حياتك وخسرت الأنس واللهو :

يا زاهد أش حصلت امن الزهد ونساك
غير السهر وانحرمت امن الفرش ونساك
حظك چدا بيك ؟ لو عنك سرح ونساك

وتحسب الميت يرد النار لو جنه
خـــلاك بوهام چنك صابتك جنه
وتگول كتب الديانا امن السما جنه

گظيت بيهم حياتك واخسرت ونساك

إن هذا يرضي فكرة عبو عن الحياة فهو مقبل عليها غير مدبر ، يرى فيها نهزة إن سمحت له فلا يفوتها ، وهو يعب الخمرة ويحييها ويصف شعاعها بأنه إن سطع يجلو القلب وينير الحياة ، وهنا تلح عليه المساجد ، هذه الفكرة المتسلطة او ضمير المجتمع يقرع في صحوة الخمرة ضميره فيريد تناسيها ، وإن كان لا ينساها فهو يدعو صاحبه ان يدعها لأهلها ويقبل على الخمرة الصافية ليطرب ويغني وينسى همومه هارباً من نفسه ، ويقضي صفاء الوقت بصفائها ، وليملأ سمعه بذكر الراح وصفائها لايريد حديثاً عن بلاد مشهد والبصرة والحي .

حي الصبابا وحـــين بالمدام او حي
اشعاعها لو سطا يجلي دليـــلي وحي
خلي المســاجد لهلها يا صحيـــبي وحي
اعلى الحميا وحك الشوف بصفاهـا
واطرب او غنى او گظى اصفاك بصفاها
املا سماعي ابد چر الراح بصفاها
لا تذكر ابلاد مشهد لي وبصرة وحي

وأن بنت العنب مال قلبه لها وأحبها فهي بكر صافية ، ربيت على الجمال والحب وعندما رآها قد نزعت عنها ثوبها باشر الشرب ، والبدر مشرق ، مع ندامى جـــلى غناؤهم هموم قلبه وباتوا ولم يتحدثوا بنميمة وبحضورها تتفتح الصبابات ويرشـف الندامى من حبابها ما يرشفون :

بنت العنب مال گلبي لي هواها وحب
بكر اصفيا ربت بجمال خمسن وحب
بعد أن شفتها رمت ثوبن عليها وحب
باشرتها والبدر شـــارج علينا ورب
بندامت اللي جلى همي حداهم ورب
باتوا ولا للخلـگ جابو نميما ورب
بحضورها غير مصات الصبابا وحب

وقد روى عن الملا حسن البزاز (١) المتوفى سنة ١٣٠٥ هـ وكان شـاعراً بليغاً وغزله ونسيبه رقيق رائق ، وكان اكثر شعره في مدح الرسـول الاكرم محمد صلى الله عليه وسلم والاولياء والصلحاء ، ان نظم هذا الزهيري على عادة شـعراء الفصحى في نظم الزجل الى جانب الشعر الفصيح متوسلاً الى الله تعالى ومتضرعاً اليه يقول :

على باب جودك الهي نوخت راحلي
مهموم دهري أبد ما شفت انا راحلي
كم أجرع الصبر مرن وصفگن راحلي
واصيح من لوعتي ياعون يا بن الحسن
معلوم أصلك او فعلك دوم دايم حسن
ان چان اسمي او فعلي في هواكم حسن
مداح طه النبي ايش الذي راح لي

فقال عبو معارضاً هذا الزهيري نادماً على مـا فرط منه متضرعا اليه متسائلاً لو

---

(١) ملا حسن البزاز ولد سنة ١٢٦١ وتوفي سنة ١٣٠٥ هـ في مدينة الموصل ، وكان شعره بليغاً وغزله ونسيبه رقيقاً رائقاً ، وكان اكثر شعره محصورا في مدح الرسول الاكرم محمد صلى الله عليه وسلم والاولياء والصلحاء ، وقد طبع ديوانه تلميذه الفاضل المرحوم الحاج محمد شيت الجومـرد سنة ١٣٠٥ في المطبعة العامرية الشرقية وقدمه بمقدمة بديعة وجيزة ، وقد اخذ المرحـوم البزاز الطريقة الرفاعية عن الشيخ حاچي سلطان والطريقة النقشبندية عن الشيخ محمد النوري ، وفي آخر أيامه فقد بصره وساءت حاله فقال :

وقعت من البزازةفي خمول ... أطال على الزمان به عتابي
أيسلبني الزمان ثياب عزي ... واكسو اهله جدد الثياب

انظر تاريخ علماء الموصل حـ ١ ص ٢٧ احمد محمد المختار

انه كان ملتزماً جنابه فأي شيء يروح له :

يامن على باب جودك نوخت راحلي
امرن تعاصى عليا ابهمتك راحلي
المرن اشكي لغيرك بالنظر راحلي

يا لما يجد بالخلگ واحد مثل وشراك
ومخالفك طاح بحبال العدم وشراك
انت الذي ما لك شبيه او ولد وشراك

لو چنت لازم جنابك ايش الذي راح لي

وقد أحس اواخر أيامه بعظم ذنوبه وما اكتسبه من آثام فاتجه الى الله طالباً منه العفو والغفران معلناً توبته منيباً اليه ومتضرعاً بأن يعفو عنه وعن جميع الناس ويمحو له اخطاءه جميعاً بهذا الزهيري الرقيق :

يا غافر الذنب لي بابك سعيت اخطاي
ومن المعاصي تبت وتركت درب اخطاي
إلا النفس ما انتهت عن غيها واخطاي

وادركت رحمتك ارجو لسگمي عفو
من بحر جودك على كل الخلايگ عفو
ياربي آني تبت وانتا تحب العفـــو

تغفر ذنوبي او تمحو لي جميع اخطاي

هنا احب ان اقف قليلا ، إني المح فى تطلعاته هذه نظرات الخيام (١) ، الخمرة ملهاة ودواء لذات الطريق المغلق فهي مفتاح الكون ، او هي الخلاص من التفكير فى هذا اللغز المحير ، شك في البعث والحساب ، الطرب حداء فيه شجى وغصة ، مغامرة الانسان في علبة مفرغة مغلقة تنفتح فى العدم ، فرحة غريرة ساذجة ولكنها عميقة أصيلة تنقذ هذا الانسان القلق من سيطرة العدم وتعطيه امتدادا لكي لا يغرق في تدمير ذاته ، هل انه سمع الخيام مترجماً ، اقدر انه سمعه متأخراً جداً ، ولكن هذه النظرة ليست وليدة تقليد له ، وانما هي نفسه تقترب في تطلعاتها منه ، نفرته من زيف ادعياء الاخلاق ، التزامه بأخلاقه الخاصة ، ومحاولته منح تجربته للآخرين وقدرته على خوض الحياة بحرية إن كان العبث احد جوانبها فالصرامة في الجانب الآخر يميز شخصيته ويتناسق معها ، وارادة للحياة ذات المحتوى العدمي ، تجدد على الأيام كيانه وتحوله الى انسان يخطو ولا يقف مغامراً رغم ما هو فيه ، انه في حرب مع الزمن وحرب مع الناس ، قادته هذه الغريزة المقاتلة بأن لا يقف ابداً ، ان يستمر وهو في شيخوخته يقضيها في دار العجزة فلا يسأم يناقش هذا ويسأل ذاك ، وينام

---

(١) هو غياث الدين ابو الفتح عمر بن ابراهيم الخيام او الخيامي ، وقد لاح لاكثر مترجميه انه لقب بالخيام نسبة لحرفته او حرفة ابيه ، وتراءى للبعض انه انما اختاره لنفسه لقباً شعرياً متوخياً السذاجة والتواضع خلافاً للعطار والفردوسي وغيرهما ممن اتخذوا لهم اسماء فخرية رنانة ،

يتردد تاريخ ولادته في مجال الشك بين سنة ١٢٠٥ و١٠٥٠ للميلاد ، وقد اجمع العمريون على انه توفي في نيسابور سنة ١٢٢٣ م ورجح عندهم انه نيسابوري اباً وجداً .

وكانت نيسابور في تلك الايام عاصمة خراسان ومدينة عظيمة بعيدة الشهرة بتجارتها وصناعتها ، وخراسان انجبت غير واحد من شعراء الفرس كالفردوسي ، صاحب الشاهنامة الشهيرة ، وفريد الدين العطار صاحب منطق الطير ، وجلال الدين الرومي وغيرهم ممن تفتخر بهم بلاد فارس .

انظر رباعيات الخيام تعريب وديع البستاني

عارياً إن نام ، وعندما يسأل لماذا تنام عاريا يجيب بأنه يخاف احتراق الدارفيستطيع الفرار بسرعة ان وقع محذور الاحتراق، أهو خوف البعث وما فى البعث من حساب نار وجنة ؟ ربما يكون ذلك كذلك ، وبعد هل هو فيلسوف ام شاعر ؟ إنه شـــاعر فيلسوف ذو ذكاء ممتاز لو اعطى العلم كما نعطي اليوم لكان له شأن آخر غير شأنه ، ولكنه يكفيه انه اعطى للناس البسطاء ثمرات تجاربه وقسوة حياته ، وصور رؤيتـــه هذه بلسان يفهمه جميع الناس إلا المثقفين ، وكان مدرسة تتلمذ عـلى يديه كثير ممن عرفه .

غزلـــه :

في احتراب عبو مع زمنه ومع الناس تدور حياته ، وهي فى دورانها تترسم صورة المجتمع وتقفو خطاه وتفارقه ، تعيش معه وتنفر منه ، ولكن هذا القلب الذي تعقدت فيه مشاعر الحياة ، واظلمت الشمس في بعض جوانبه . ألم يكن في جانب منها مشرقا منيراً ، ألم يخفق قلب عبو خفقان الحب والى اي مدى إن خفق يستطيع اسكاته ومداراته ؟ ألم يعبر عن القبح ؟ فلماذا لا يعبر عن الجمال ؟ وهو ان استطاع لمس القبح وشخص ابعاده فى حياة الناس ؟ الايستطيع على النقيض ابراز الجمال وتحسسه والانفعال به ، والتلازم هنا بين النقيضين تـــلازم موثق بآصرة الحس ، فالانفعال بالجمال لا يكون نتيجة ، لان هذا الشيء هو جميل فعلاً ، اي ان يكـــون التناسق في ابعاده وتموجاته ، وانما يكون هذا الشيء جميلاً فعلاً متى ما تمثله الانسان من خلال ذاته ووعى فيه مقومات الجمال ، فالقمر والنجوم منعكسة ظلالهما في مـاء رقراق لا يعنيان شيئاً بدون هذا الانسان الذي يتحسس مواطن الفتنة فيه ، وبـدون النفس المنفتحة المقبلة على تلقي السحر وتذوق نغمة الضوء ورنة الظل ، وكذلـك المرأة تبقى شيئاً . حجراً .. ان لم يكن هناك من يلمح فيها نعومة الانثي وجـــذب الغريزة ، فهنا اذن تواجد نفسي بين الاشياء ، ومحاورة بين الـــذات والشيء تلعب الغريزة فيها دوراً كبيراً وايجابياً في التلقي وفى الانفعال .

ان عبو لن يكون بدعاً بين الرجال فهو ذو حس مرهف وذو قابلية على تذوق الحياة ، ومجال الحب قطب مغناطيسي لا يفلت منه قلب ، والمجتمع ان أحكم اغلاق الابواب وضرب الاسوار العالية على نسائه فلم يكن بمستطيع وان سد النوافذ

« الخيليـــة والازار »

والابواب أن يغلق القلوب تلك حقيقة لا ريب فيها فقلب المرأة كقلب الرجل ، وقلبه ان انتظمت دقاته بعد خفقان ، فقلبها في خفقان دائم ، وان شغل الرجال شاغل الحياة فولج بها جميع الابواب ، فالمرأة قعيدة البيت كما كانت قبلا أومشاركة في بعض جوانب الحياة كما هي عليه الآن قلبها له موقف آخر يختلف عن قلب الرجل اختلافاً بيناً وبحكم تكوينها الوظيفي فهي تعشق وتحب ، وتريد حياتها كلها مملوءة حباً واعجاباً بمفاتنها وحسنها ، وهي بغريزتها ام ، ومجتمع المرأة فى زمن عبو مجتمع منعزل ، وهو أشد صرامة وتحفظاً على النساء ، فهي فى دائرة الأسوار لا تخرج الا اذا ذهبت الى الحمام او اذا اخذت الملابس الى الشط لتغسلها مبرقعة بما كان يسمى قبلاً « بالخيلية » نسبة الى « خيلة » أي أن البرقع يريها اشباحاً واشخاصاً على وجه الظن لا على وجه اليقين و « الخيلية » عبارة عن نسيج من خيوط سود مخرمة تطرز اطرافها بما يجعلها غير مرنة مرونة « البوشية » (١) ومشتملة بازار طويل نعقده بيدها من وسطها ولونه اسود ، وتلبس الجزمة ذات الحلق الطويل ، وتضع على رأسها طربوشاً مزركشاً بقطع ذهبية مصاغة على نحو خاص ، وربما خرجت من دارها فلا تعود اليه إلا بعد السؤال عنه لندرة ما تخرج من بيتها ، ومع هذا فأن الحب يعرف قلب هذه المرأة كما يعرف قلب الرجل ، فكيف تنشأ هذه العلاقة بين كل ما يحيط المرأة والرجل من حواجز ؟ ان مناسبات الزواج والافراح الاخرى كالختان، وإقامة المواليد يتيح للمرأة رؤية الرجل من وراء حجاب « الخيلية » او حجاب الحريم فهي

(١) پوشيه : لفظ تركي پوشي - فارسي : پوشه : برقع
انظر كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل - الدكتور داؤد الچلبي ص ٣٤

حرة فى النظر اليه تستطيع استجلاء محاسنه وصفاته ، إلا انه لا يستطيح رؤية وجهها إلا اذا سنحت له فرصة عارضة كأن ترفع « الخيلية » عن وجهها فى طريق فيراها عرضاً فيقع فى حبها ، على ان النساء لا يخلون من مكر بعد اعتيادهن هذه الحياة ، فهن يستطعن بمكرهن اصطياد الرجال ، وقد توصف بعضهن بأنها من « راكبات الحب » اي تستطيع ان تركب حب الماء وتطير وتفعل ما تريد ، او تغوي هذه من تغوي عن طريق الكيد والمكر والدهاء ، فاذا وقع فى شراكها من وقع وترامى ذلك الى مسامع الاهل فان العار لن يمر إلا بالغسل قتلاً ، وما اكثر ما وقع من هذا الغسل .

والزواج متنفس المرأة والرجل دون اختيار ، فهي تنتظر فارسها ، والفارس لا يكون فارساً بهذا المعنى ، او بمعنى الوظيفة او المال الآن فيكفى رضى الاب لبنته فى الزواج فيكون الزوج فارساً ، والفارس مطلوب منه ستر الحال ما دام يستطيع تقديم عيشة الكفاف لزوجته ، وليس لها بعد تزويج الاب حق النقض ، وهي لا تفوه بكلمة ما اثناء خطوبتها او زفافها واسبال عينيها حياء أمر يؤخذ بنظر الاعتبار ، فما لم تكن خفرة تكون حديث النساء على الاخص ليحكى الى الرجال من بعد ، فيسيء الى سمعتها ، وكأنها متلهفة على الزوج ، وهو لا يراها حتى تزف اليه ، وتصف الام او الاخت للفارس زوجته المنتظرة ، قامتها الممشوقة ، اخلاقها وصفاتها ، او تقوم الدلالة مقام الام او الاخت فتسهب فى الوصف وتطنب فيه وتقبض الثمن اذا تم الزواج وقد يكون الوصف صادقاً او كاذباً كله على عادة السماسرة فى الكذب ، فاذا كان يوم الزفاف زينت العروس بنوع خاص من مبيضات الوجوه يسمى «سبيداج» ومشطت

« زفـــة العروس »

الماشطة جذائلها وصففتها وتغني النساء فرحات :

يا ما شـطا مشطيها بالعگـل لا تأليها

مشط الذهب لايگ عليها ومعلما عل الدلالي

ومعناه يا ممشطة الشعر مشطي شعرها بتأن وعقل ولا تؤلمي شعرها فـان مشط الذهب يليق بها وبشعرها فأنها تعلمت على عيش الترف والدلال ، والدلال يغـنى للمترفة وغير المترفة ومشط الذهب اثناء الغناء يكون لمن مشطها من ذهب فعلاً ومن كان مشطها من خشب ايضاً فالفرح لا يعرف الفوارق .

ويوضع على شفتي العروس قطن فيه صبغ احمر يقوم مقام قلم الحمرة الآن بألوانه المختلفة ، كما تصبغ الخدود بالقطن الاحمر نفسه ، فتمتد فى كل خد طرة حمراء ، وكان المثل السائر لمن تعير بالقبح المدارى بالجمال المكذوب يقول « لوما حمرة مكي كانت الخدود تبكي » وواضح ان مكي عطار يصنع الحمرة الجيدة ويبيعها ، وهذه الحمرة تزيف القبح وتجعله جميلاً وتلبس الماشطة العروس ملابسها وتزينها كما تلبسها الجزمة ، وقد صادف فى زفاف احداهن ان كان زوج الجزمة مربوطاً بسير من جلد فلما ارادوها على القيام نهضت ولم تستطع الخطو فجروها فتعثرت ، ولم تستطع العروس الاشارة الى ما بحذائها ، فان مجرد الاشارة يعتبر زلة لا تليق بشرف العروس ، وكان الرجال ينتظرون عند الباب ويصيحون بأن الوقت حان اخرجوا العروس وتعالى الهرج حتى انتبهت احداهن وكانت ذكية الى السير المربوط فحلته ، فمشت العروس دون تعثر .

ويهيأ للعروس حصان مزين او حمار قمىء مزين هو الآخر لتركبه الى دار

زرجها ، واذا كانت الدار قريبة مشت ومن امامها الرجال ومن خلفها النساء يهزجون ويزغردن حتى تصل الى الدار بينما يكون الجهاز قد ارسل من قبل تحمله احصنة مزينة بالسرج والاشرطة المرصعة « بالودع والخضرم » ، والاجراس ذات الرنين المتواصل ، وكأن الحصان يعلم ما يقوم به من مهمة سارة فيسير بخيلاء وتبختر وتعطى مشيته هذه للاجراس رنينها المحبب مؤذناً بما يحمل من جهاز العرس ، وكان يرتبط هذه السوابق مكاريا يعدها لهذا الغرض فتستكرى منه ، حتى اذا استأنست العروس فى الدار جاء أهل الزوج بالطبلة والنقارة وغنت النساء الاغنية المحببة ذات الايقاع الحلو والنغم المطرب والكلمات المعبرة :

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل چنها شطب ريحان عل الميا

* * *

وتگول ما ريدو وتگول ما ريدو
لو ملكوني حلب والشام ما ريدو

* * *

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل چنها شطب ريحان على الميا

* * *

دطلع لي باب الجبل وانزل لي باب الطوب
وهللك يا دمع وشگك يا ثوب

لمن جاني الخبر عگد الحلو مگضوب
دملي اعبوبي حصى وناحر الميا

* * *

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل چنها شطب ريحان عل الميا

* * *

من فوگ تل موسي من فوگ تل موسي
تعجبوا يا خلگ يذبح بلا موسي
لما انطاني بيچ بلفين جاموسي
ولفين عبده او عبد ولفين گرجيا

* * *

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل چنها شطب ريحان عل الميا

* * *

فاتت ونا صلي فاتت ونا اصلي
الزلف عذگ النخل عل الخد مدلي
والله إل ما نطاني بيچ لاهج وولي
وسگن ابلاد الغرب سنتين وشويا

* *

ليا على ليا ليا على ليا
وتميل چنها شطب ريحان على الميا

وواضح ان هذه الاغنية الشعبية تنشد بصورة جماعية ، وربما دبكت النسوة وهن يغنينها اذ ان ايقاعها ايقاع دبكةوحبذا لو يعاد غناؤها وتسجيلها كتراث شعبي جميل وهي من نغم السيكاه .

ومعناها ان هذه البنت الجميلة اذ تمشي تتلوى ليا بعد لي وتميل كأنها شطب ريحان على الماء ، وهي لعوب فتثنيها يشير الى انها تريد حبيبها ولكنها تقـول بدلال لا أريده ولو ملكت حلب والشام لا تريده ، وعندما يسمع حبيبها بأنهـا زفت الى رجل آخر يسير كالمجنون من باب الجبلين الى باب الطوب ، مقسماً بأن دمعه سيظل يهل وثوبه سيشققه ، ولا يكتفي بهذا بل سيملأ جيوبه بالحصى وينتحر غرقاً بالنهر ، ان حسنها يبهر العيون من بعيد من « تل موسى » والعجب ان هذا الحسن يذبح بلا سكين ، وان اباها لم يرض بأعطائها له الا بشق الانفس وبما بذل من مال الفي جاموسة وألفي عبده وعبدوالفي كرجيه ، وانه كان يصلي عندما رآها وهي تمر فشغلته عن صلاته ـ فأي صلاة هذه ـ زلفها كعذق النخل متدل على خدها مقسماً ان لم يرض أباها بتزويجه منها فأنه سيهج ويولي ويسكن بلاد الغربة سنتين ويزيد .

ولا يخفى بأن نشرها يفقدها الايقاع وما فيها من لفتات حلوة واستعارات جميلة .

اما أهازيج الرجال بهذه المناسبات فكانت تنشد هذه الاهزوجة الركبانية :

يا جمال الحگ بان إلنا

تردد هذه اللازمة بصورة جماعية بينما ينفرد احدهم بألقاء الاهزوجة .

لو هلهلتي يام ثوب ادعم
والهلهولا إل ويلاد العم
أش حدو الغريب اليگحم
رايح دموا مطلوب إلنا

فيردد الرجال :

يا جمال الحگ بان إلنا

ويستطيع الرجل المنفرد بالهزج ان يلقي ما شاء على غرارها بين اطلاق البارود وزغاريد النساء ، ويشهر كل سلاحه من خنجر او قامة او سيف ، فهي فرصة لاتعوض لاستعراض العضلات امام النساء وللفت انظارهن ، ويتضح من هذا ان الجمال كانت محط المباهاة وموضع الاعتزاز فهي واسطة النقل ، والتفاخر بها تفاخر بأعز ما يملك الانسان آنئذ ، كما كان جهاز العروس يحمل عليها ،ويلاحظ ان بنت العم حق لابن العم لا ينازع فيه ، اما الغريب الذي يحاول اقتحام هذا الحق فان دمه مهدور على عادة التعصب القبلي .

وقد بينت من قبل ان الزجل بلهجة الموصل الدارجة مقصور على المنلوج لغرض الاضحاك والانس والنقد الاجتماعي ، وان الموصل المتحضرة تنتقد لهجتها نقدا مراً ممن ينزح اليها من القبائل العربية فتضيق بها السبل ، ويأخذ المتحضرون اهازيجهم وغناءهم من هؤلاء النازحين اليها المزاحمين لسكانها ، ولعل النصارى يمثلون لهجة الموصل الحضرية ، لشعورهم بأنهم اقلية وتحاشي احتكاكهم احتكاكا موثق الآصرة

« يهودي يبيع الملابس العتيقة »

مع السكان الآخرين ، ولاختلاف المعتقد ، ولهذا نلاحظ في اغانيهم وزجلهم مع اختلاف بين فى استعمال اللهجة الدارجة نلاحظ الخمرة تطغى على هذه الاغاني :

عل الجنجلى الجنجلى سكغان او عقلو گري
عما ابراهيم كن سكع سكغايتو امدلـلي

□ □ □

ابمغو ماكن علس غيغ المعلاق والعدس
او فيسو كلتو نمس لقونو بالمزبـــلي

□ □ □

اشقد حلوي قامتو طمامي كان طمتو
قميس عتيق لفتو كلو قمل منتلي

□ □ □

جيتانو ما يغسلو قميصو ما يبدلو
او فيسو مثل الدلو ميت غقعا امشكلي

لا ادري معنى « جنجلى » واتصور انها لفظة افتتاح لجرسها المرن المعبر عن شيء سيأتي مضحكا من سكران فقدصوابه من فرط ما عب من الخمر ، فان العم ابراهيم سكر ، وكانت سكرته هذه عميقة « مدللة » فقد معها الاحساس بالوجود ،

ان العم ابراهيم طول عمره لم يعلس - يمضغ - غير المعلاق - الكبد - والعدس . طربوشه نمس قذر وجده بالمزبلة ووضعه على رأسه ، كم هي حلوة قامته؟ طامة جاءته فطمته ودفنته ، لفته - عمامته - اشتراها من يهودي يدور على الابواب

يصيح « قميص عتيق » كله مملوء بالقمل .

جيتانو ـ لباسه لا يغسلهوقميصه لا يبدله ، وطربوشه اشبه بدلو مرقع بألف رقعة مشكلة الالوان .

او مثل :

فنجاني فنجاني ورك دنتلي

□ □

اش طيب عغقنا بينو آنسون

بالله يا ميخانچي كبغ لي الماعون

دسكغ وغني وزمزم قليون

والله ليحغشني ابدمو دبتلي

الفنجان [١] القدح . هنايخاطب المخمور قدحه مستعجلاً امتلاءه ، ورك ـ لفظة زجر .

وبعد ان يعب الخمر يصفهبأنه طيب المذاق بفعل الآنسون ، ويطلب من صاحب الحانة ان يكبر الماعون ويكثر فيه من الطعام ليسكر ويغني ، ويزمزم القليون ، اي ليدخن في عصا طويلة مثقوبة تنتهي برأس طيني مفخور يوضع فيه التبغ ، وترطب هذه العصا الطويلة الملفوفة بقطع من قماش بالماء ليصل الدخان الى الفم باردا رطباً . ولا يخفى ان كلمة زمزم تعطي معنى الزهـو والانتشاء وهو يحلف بأن الذي يتحرش به

[١] الفنجان : فارسي بنكان . الطاس ، الكوب . والآن الاناء الصغير المعروف الذي يشرب فيه القهوة والدواء وغيرهما . ص ١٤٥ كلمات فارسية مستعملة في عامية الموصل ـ للدكتور داود الجلبي .

سيقتله ويبتلى بدمه ، وهذا شيء مضحك يصدر من سكران هذا وضعه .

ويغنى للعروس :

اليوم السبت او غدا لحد　　اشقد كويسي مغت ابلحد
جابلا الحب اوقلا دلبسي　　وتمشي بالحوش اوماكش احد
جابلا الحجل او قلا دلبسي　　وتمشي المبيعه او ماكش احد

ان اليوم هو يوم السبت وغداً يوم الاحد عطلة النصارى ، فكم هي جميلة امرأة « ابلحد » وهو يحبها فقد جلب لها « الحب » « اللؤلؤ » وقال لها : البسيه وامشي بحوش الدار فليس معهما احد ، رقيب من حماة او سواها ، كما اهداها الحجل ـ الخلخال ـ وقال لها البسيه واذهبي الى البيعة لتفاخري به النساء وتلفتي انظار الرجال .

ولا شك في ان اطراف مدينة الموصل شبه المتحضرة كانت تختلف عن سكانها المتحضرين ، ومع ذلك فهي مؤثرة ومتأثرة في الوضع الاجتماعي لها ، فالمرأة هناك لا تلبس « الخيلية » بل تلبس الخمار بينما يكون وجهها سافراً وتلبس العباءة على اكتافها وازارا على رأسها ، فهي وان كانت ذات حجاب الا ان حجابها لا يحجب الوجه وقد سمعت هذه الاغنية من مقام المخالف الموصلي ، كلماتها كالآتي :

واعلى الجبين الحلو　　اوگي يا مگرونه
وابشهر بان العجم　　شوگي يذكرونه

<> <>

يا النايما عل التخت وبحلگها شيحا
والما يذوگ الطعم ما تنفعو الريحا

<> <>

يا لبعتني بالرخص بالروح ما بيعك
والناس ماهم سوى دحج بصابيعك

هنا الجبين الحلو واضح القسمات ، والمقرونة وهي عصابة تشد المرأة رأسها بها تعطي الجبين اشراقاً يليق به ، وهي نائمة على التخت ـ السرير ـ وقد حلت حلقها بقلادة من شيح ، الرائحة طيبة ، ولكن الذي لا يذوق الطعم لا ينتفع بالرائحة الشذية ، ثم انتقال الى العتاب فهي باعته بثمن بخس ، ولكنه يغليها ، ولا يبيعها بروحه ، الناس مختلفون ، وان اقرب الامثال لهذا الاختلاف هو ان ينظر الانسان الى اصابعه فهي ليست متساوية .

نخلص من ذلك الى شيء طرحناه اولا هو هل أحب عبو ؟ فالجواب هو انه نعم ولكنه كان يتكتم في حبه ولا يفصح عنه ، والحق اننا من وراء اللمسات التى ذكرناها آنفاً ، ومن انه كان لصاً واللصوصية كانت بمعنى الرجولة انه كان يستطيع اذا ما اراد ان يلتقي بمن يحب وانه ذات يوم نزل لصاً في دار فاستطاع نزع خلخال المرأة وهي نائمة الى جانب زوجها ، حتى اذا تسور الحائط اطلق زوجها عليه النار فاستقرت الطلقة في ظهره وبقى بعدها محدودب الظهر يلتزم العكاز ان مشى .

اننا نقدر من هذا مدى امكاناته في تحقيق صبوات الحب في شبابه الاول وارضاء هذه النزعات المتميزة بطابع المغامرة وقد عرفناه نزاعاً الى المغامرة يحبها ولا

يستطيع العيش بدونها .

كما نلاحظ فى زجله تصريحاً بأسماء نساء ، فهذه واحدة اسمها « بهيه »واعتقد أنها مغنية او راقصة غير موصلية لانه في نطاق الموصليات لا يصرح بأسم قط ، لما بينا من تحفظ الموصل على النساء . اما بهيه فقد رأى فيها غادة تفوق الغيد بعيونها وخصرها وجيدها ولفتاتها ،ففتنته مظاهرها الجميلة هذه ، على ان العذال لا ينظرون بنظر المحب الذي يرى في حبيبته كل صفات الكمال والجمال فينحي عليهم باللائمة معبراً عن خيبة امله وعدم ادراكهم لما يجد في نفسه والعاذل يقول له : لماذا تصوغ اوصافها كل ليلة وتعيد هذه الاوصاف كأنك مجنون فيرد عليه بأن لا يعيد ما قال فأن رؤية « بهيه » فرض ومسرة وكأنها ليلة عيد اما الذي لم يرها ولم يحضر مجلسها فله الحق فى ان يتقول عليها ما يريد .

عاينت غيدا اتفوگ الغيد ولفاتها
بعيونها والخصر والجيد ولفاتها
خاب العذول الطراه ابشين ولفاتها
عندي اوكال اش صغت اوصاف ليلة عيد
مجنون انتا ؟ او كتله اجواب لي لا تعيد
شوفت « بهيه » فرض بحساب ليلة عيد
الما حضرها طلع خسران ولفاتها

كما نلاحظ نسوة اخريات مثل « فهيمه » بنت الهندية وكانت تتسمى بأسم « فهمي » فهي امرأة مسترجلة تجلس مع الرجال وتقلب اسمها من فهيمه الى فهمي

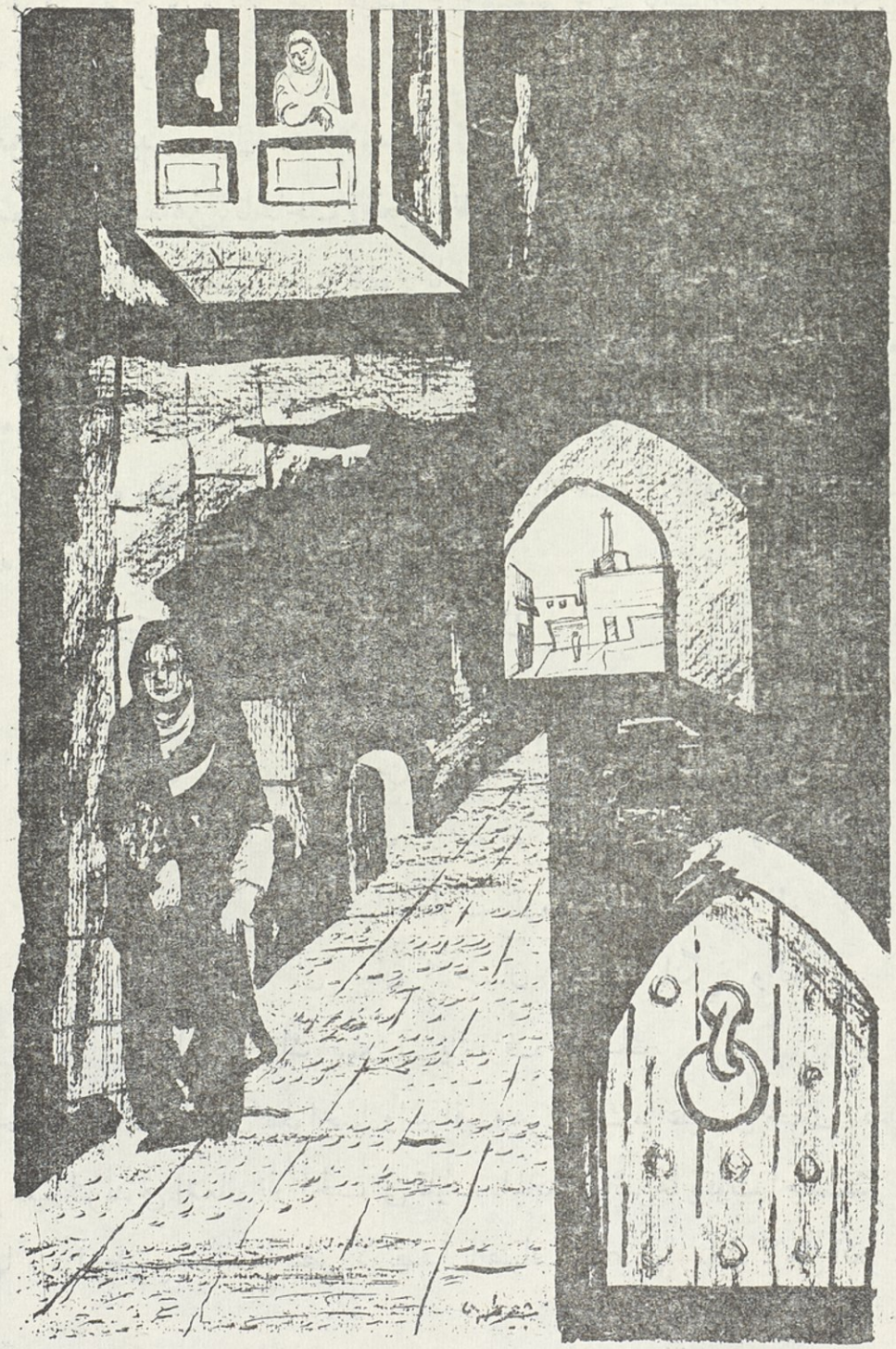

ولابد انها هي الاخرى لم تكن من الموصل في الصميم وان كانت تقضي حياتها في الموصل وتجالس الرجال فى المقاهي .

وهو في غزله يدور حول هذه الاوصاف الحسية الا انه يحاول تصوير احساسه وهو منفعل بهذه المظاهر . فالحاجب والعين والغنج اكثر ما يستثيره ، وهي مواطن الاثارة والفتنة ، فهو يخاطب حبيبته فيقول يا زين يا كثير الغنج لاح حاجبك يرمي عن سهام ويختفي بسرعة وهو يروم الوصل ويخاف الحاجب والرقيب فلا يستطيع تحقيق ما يبتغيه من هواه هائماً بالفلاوات والبراري كأنما تلسعه ابر العقارب ومحبوبه على قسوته بعد اخباره بما اصابه من هواه يريد منه ان يلتفت اليه ويعطف عليه :

يازين كثر التغنج لاح لي حاجبك
بسهام يرمي او عن عين الخلگ حاجبك
اروم وصلك ولكن خوف من حاجبك
وضحيت بهواك هايم بالفلا والبر
ومن العجارب اروم اسمومها والبر
ان چان الاحسان عندك يلتگي والبر
آني خبرتك ترى لي يا ترف حاجبك

وحبيبته تخطف العقول بحواجبها واشراقها وهي تدرك ما عليه من جمال فتصد وتمتنع عليه لتزيد فى اشعال نار الحب فى قلوب المحبين ، ثغرها ياقوت احمر ، واسنانها برد ابيض وخدودها بيض لا تصدأ بالضباب ، وعيونها ملهاة لاهل الغرام

تصيدهم وتعذبهم ، وهو لا يعرف سبباً لصدودها سوى الاثارة والاغراء ، وهـل يضيرها في شيء على سمو حسنها ، ان وصلت هذا الخيط من الحب الذي لم تستشعره نحوه .

يا من خطفت اعگول ابحاجبك بسناك
ناوي تعذب جميع اهل الهوى بسناك
ياقوت احمر بثغرك والبرد بسنـاك
واخدود الك بيض ما تلزم ضباب او تصد
واعيون تلهي جميع أهل الغرام او تصد
يازين شنهو السبب عنا تميل او تصد
شي ضر ولو يوم يا سامي الحسن بسناك

ان الغزل هنا يختلف عن الغزل الشعبي فهو وان كان يدور في فلك الأوصاف الحسية الا ان هذه الاوصاف ليست مجردة من مشاعر النفس المنفعلة بها ، والتعبير يتخذ طابعاً داخلياً بأطار الموال المسبع ، ولا نرى عبو يرتفع في الغزل عن هـذه العلاقات الحسية ذات المضمون الواقعي ، فهو حسي يطلب اللذة ويجد فى طلبها وقد يرق احياناً فى غزله وتعذب الفاظه فيبتعد عن تصيد الالفاظ الوحشية الغريبة على غير عادته فيما ينظم من هذه الموالات .

فهذه امرأة اخرى اسمها « بسمه » ولعله هو الذي سماها بسمه جاءته متهاديـة تجر ذيل الحسن وهي اذ تسفر عـن وجهها يخال بدراً اشرق في عرض السماء فهي بيضاء رداح مكتنزة الجسم متناسقة الاعضاء كلما ذكرها العليل صح جسمه وعادت

اليه الروح ، واذا دعت الميت رد ملبياً نداءها ، جيدها لامع يزين لباتها عقود فتضفى عليه فتنة وجمالا ولسانهاساحر عذب فعله كفعل السيف وهي اذ تستخدممع جمالها عقلها الحصيف تتمكن من القلوب اي تمكين ، وتجلو باشراق بسماتها ما يعطي العقل سمواً وعلواً :

جتنى تهادى تجر ذيل الحسن بسما
حين اسفرت گلت ذا بدرن شرج بسما
بيضا رداحن عروض اش ماصحت بسما

تشفى العليل اذ تنادي الميت لباها
والجيد لامع يزين اعگود لباها
بلسان ساحر تسل بالناس لباها
هذي البسهما تشارج للفهم بسما

ان عبو لا يستقيم على حب واحد ولا يجد الحياة إلا متعة عابرة ، فهو يجيل بصره فيما حوله فاذا لمح ما يسره من حسن وجمال هام به ، العقارب ابداً تعبر عن لسعات العذاب وسياط الالم تخز قلبه ، وكيف نريد منه ان يمضي حياته على حب واحد لا يريم عنه ، وهو لم يعرف في حياته قراراً ولا حدا ، وهو لم يرد هذا القرار يمنحه الدعة والسكون ، وهو ينتقل كل يوم بين حلب وبغداد والبصرة وكركوك لا يهدأ له بال ولا يطمئن في ارض إلا ليرحل عنها .

ان النساء عنده لعبة مقامرة وصيد يجد فى الظفر به حتى اذا وقع فى شراكه لم يطمع منه الا بشهوة الصياد يعرف كيف يدع تحت قدميه حصيلة طراده ليبدأ من

جديد في مغامرة اخرى ، وهو يعاشر اي امرأة فما اكثر ما عرف من بيوت الليل ان خانه الحظ فطاشت سهامه ، على ان ذلك يدفعنا الى سؤال نراه يتم مذهبه فى الحياة ، لماذا لم يتزوج ولم يبحث ؟ اهو التشويه فى الخلقة اصابه جراء مغامرته وعبثه ، يده المنكسرة ، ظهره المطعون ، شفته المقصوصة ، اسنانه المتكسرة ، اهو السبب في عزوفه عن الزواج فعزفت عنه النساء ، فلم يحظ بمن تقبله زوجاً ؟ ام انه كان يشك في المرأة ولا يرى فيها محلاً لثقة ، وهو الحريص على الا يثلم عرضه، ام انه رأى فى الزواج والانجاب شراً فلا يكون سبباً في شقاء آخرين كما فعل ابو العلاء المعري (١) .

هذا جناه ابي علي وما جنيت على احد

لقد بين بأنه تجنب الزواج والانجاب راضياً بأن يموت وحيداً لا يبكيه أحد ولا يندبه احد ، وهو مع ما تجنب عنه لم يسلم من اذى الناس ومضايقاتهم فهم يريدون موته تشفياً وانتقاماً منه على ان آخرين يحزنون لفقده وموته .

---

(١) ابو العلاء المعري هو احمد بن عبدالله بن سليمان التنوخي ولد بالمعرة سنة ٣٦٣ هـ كان ابوه من افاضل العلماء وجده قاضياً اصيب بالجدري ففقد بصره ، كان فيلسوفاً وشاعراً قدم بغداد من الشام ثم رجع الى بلده المعره وبها توفي ، ويقول عن المعره فيمن عيره بها :

يعيرنا لفظ المعـــرة انها من العر قوم في العلا غرباء

وقد حرم على نفسه الزواج وتصور فيه جناية يجنيها الاب على اولاده .

على الولد يجني والد ولو انهم ولاة على امصارهم خطبـــاء

ولما مات سنة ٤٤٩ كتب على قبره حسب وصيته البيت المدون اعلاه .

انظر سقط الزند

ما يوم نفسي على بعض الرديا تهم
احچي صدگ ما اوجه للخلايگ تهم
وهل الروايات ما ارضى رواياتهم
لن الروايات بيها امن الفشر واخلاف
واتجنبت عن زواج او عن ضنى واخلاف
ما صابني غير موتا ابها جدل واخلاف
تشفي الزمايل او عد اهل النجابا تهم

فهو يختار العزوبة ويتجنب الزواج عن وعي وادراك مع في هذا الاختيار من مرارة ، وكأنه اختار اهون الشرين ، ويفهم من الاختيار ترجيح عمل على عمل آخر مع وجود القدرة على اتيانه او الامتناع عنه ، والشيء الطبيعي ، والاقرب الى واقع الاشياء ان هناك من ترضى به زوجاً على علاته ، فقد تزوج آلاف الناس دونه ورأوا في الحياة الزوجية نعمة ودفئاً وخصباً ولو على حد المثل القائل « لكل ساقطة فى الحي لاقطة » . يبقى ما اذا يشك فى المرأة ولا يريد ان يكون سبباً فى ايجاد من يشقى بحياته كما شقي ، إني ارجح انه كان يشك فى المرأة ولا يأمنها مع وجود السبب الآخر وهو الا يكون سبباً فى شقاء الآخرين . تلك نظرة تتمم احداهما الاخرى وتقويها ، وبتعبير آخر ، ان نظرته ذات المحتوى العدمي لا تعفيه من ان يكون كذلك فاذا وجد الانسان ليشقى ويموت غير عارف ما وراءه فلماذا الانجاب ؟ والزواج مقترن اصلا بحاجة حفظ النوع والابقاء عليه ، ولا اخاله اهتم بمن يعقبه من بعده ليحفظ له اسماً ، وانما جعل الشعر ذكرا ورمزاً اليه ، مع اطمئنانه الا ان هذا

الذكر لن يدوم طويلاً فما هي الا سنين لا تقاس بعمر الدهر على حد تعبيره لكي يمحي كل شيء ويجري التيار عارماً يغسل الصخور ولا يبقى من السطور اسماً ولا ذكراً ، وليس من شك فى انه احس اخريات حياته مرارة الوحدة تشتد عليه وتضيق على صدره الخناق فينام في المقاهي ليلا وفي الدكاكين المهجورة شريداً وحيداً يجتر ايامه ويعيد ذكرياته ، ولا يجد رعاية الابن او الزوجة ، ويفتقد هذا الحنو الذي يلين من قناة الحياة ، وهو فى شيخوخته تفت في عضده السنون وتخني عليه الايام وتسلمه بعد صولته وقوته الى ارتعاش اليدين وضعف البصر والى كل ما يشكو منه الشيخ من الآلام انظر اليه يقول :

حامت عليا ملمات الزمان او راح
حتى العگل ما بگالي من جنان او راح
حيلي نحل چيف عاد اوجد سرور اوراح
حالي تردى بعد هيهات ابرا وصح
حاير ولا ادري سعودي وين ولا وصح
حتى الچبد والحلگ مني تمرر وصح
حيث الهموم اخمدتني بالنياب او راح

حامت عليه ملمات الزمان واخذت منه ما اخذت وراحت ، حتى العقل اخذته ولم يبق له من قلب او روح ، عزمه نحل وضعف ، فكيف يجد سرورا او راحة ؟ وحاله تردى فهيهات يبرأ عقله وجسمه ، حائر لا يدري سعده اين ولى واصبح ، وحلقه اصبح مرآ من كثرة ما يندب ويصيح حيث الهموم اخمدته بأنيابها ، وطحنته

الايام برحاها ، تلك حالة يصورها احسن تصوير فيظل عالة على معارفه ، يرقون له فيغسلون ثيابه ، او يدفعون له بعض الدراهم ليسد بها متطلبات هذه الحياة الذي جعل بينها وبينه هوة سحيقة من العداء ، وكانه حين جاء على كـره منه لم يشعر قط بأي نوع من إلفة لهذه الدنيا رغم امتداد عمره ، ولم يحاول توثيق صلته بها ، فابتعد عنها واراد قطع ما بينه وبينها من سبب ، وكان ينتظر ما لا بد من انتظاره طال بـه الزمن ام قصر ، فوطن نفسه على هذا الافتراق وهذا الانتظار ، فهو اذ يرغـم نفسه ارغاماً على تحمل هذه الحياة المرة القاسية رجع الى دوائه المفضل فيعب الخمـرة ليخدر فينام ، فالزواج بالنسبة اليه نوع من البقاء وضرب من التصافي يعقدة ليس بينه وبين امرأة ، وانما هو عقد ضمني ووصل بينه وبين هذه الحياة التي لم يحبها ولم يألفها ، فعاش بعيداً عنها وإن كان قريباً منها ، وقد تكون الكناية عـن الزواج لدى عامة الناس حين يقولون « دخل بالدني » إنما هـو تعبير لما ألمعنا اليه عن هذا العقد الضمني في الزواج كرابطة مشدودة الى الارض والتفاعل معها ، والربط بين الدنيـا والمرأة مظهر لشكل يبدو ناعم الملمس حلو المنظر وبأعتبارهما اداة للاخصاب والانتاج تماماً كالارض المخصبة المنتجة ، ولست اشك فى انـه احب امرأة بعينهـا ومنحها ثقته وظل وفياً لها على طبعه في الوفاء لاصدقائه وخلطائه ولكنها لم تبادله ثقة بثقة ووفاء بوفاءفملأ الشك قلبه واسلمهذلك الى اللهو العابث غير ملتزم بامرأة بعينها ينتقل من امرأة الى اخرى يصطاد ويمضي حذرا من فريسته ان يرق لهـا ويشفق عليها فيقع اسير رقته واشفاقه ، وهو مظهر آخر من مظاهر الانتقام مـن مجتمعه منعكساً فى تصرف من لا يقيم وزناً لمواضعاته وما تعارف عليه ، كل ذلك جعله

كأنما اعتزم سفراً عاجلا بعيدا فهو لا يود ثباتاً على ارض ، وها هو ينزل لعناته على من يثق بالمرأة او يأمن جانبها .

يالمثلتج خاب من ياثگ او يامنها
تحلف بعدچ حلف منها او يامنها
عشراي شفتي اسرور ابها او يامنها

چنچ مناحيس يا ضكتي حناضل ومر
چني ابطبعچ على جمع المناهي ومر
زعلچ على ويش يا خاطر خطرليچ ومر
نعلي على اليضمن ابحرما اويامنها

وليس العداء بين حواء وآدم يتفجر لعنة على لسان عبو بدعاً من بدعه وانما هو قديم قدم حواء وآدم . فالوصية الشعبية الشائعة لدى رجال الامس لابنائهم تقول « لا تبيع سرك لامرأتك ولا تمشي مع رجل الحكومة ، ولا تستدين من « گور ممش » ، فالمرأة لا تحتفظ بالسر ، هكذا كانت الوصية تنقل جيلا بعد جيل ، رجل الحكومة هو اداة تنفيذ فلا يؤمن جانبه ولا يكون صديقاً ، والاستدانة من « كور ممش » وهو الذي لم يكن عنده مال فاغتنى يكون حريصاً على ماله يعض عليه بالنواجذ فهو امر غير مستحب ، فالمرأة فى زمن عبو لم تكن محل ثقة ولا تؤتمن على سر ولا ادري ربما تغير الزمن فبدت هذه النصيحة قديمة بالية او انهـــا لا زالت جديدة ! ! كما يقولون هنا ايضاً في باب القدح بالمرأة : بأن رجلاً قال لزوجته : يا امرأة عندي سر اقصه عليك فقالت لـــه تفضل واحكيه يا رجل فان سرك

تحت حذائي ...

ان الرجل يبالغ ولا شك في نقده للمرأة وضيق صدرها بما تملك من اسرار فتبيحها لجاراتها وصديقاتها إلا انـــه ايضاً يضيق بأسرار نفسه فيودعها لدى امرأته او يضعها بين يدي اصدقائه لينفس عن صدره فتذاع ، وعلى اي حال فان الاطار الفكري والنفسي الذي تأطرت به حياته يؤكد هذا المسار المتشكك فيمده العبث بطاقة تنزع به منزع الراحة النفسية والفكرية المؤقتة .

هجـــاؤه :

ألمحنا فيما سبق عن نوازع هذا الرجل وكشفنا بعض ما اعتور حياته من تجارب وهموم كانت تتآكل في نفسه وتصطرع فيها نوازع شتى . عبرت عن فساد القيم وانعكست فى فكره انعكاساً طبع حياته بطابع مأساة عمقها شعور مرهف وحدس ذهني لم يتأت لغيره ، والهجاء لون من ألوان الوجدان المنفعـــل بحدث واذا انصب هذا اللون على ذم الدنيا والدهر وتصوير ما فيها من تناقض يتخذ شكل الهدم والبناء والحياة والموت ، فان الانسان كون آخر يتجسد في مرآه الظلم واختلال التـوازن ، والواقع ان الدهر والدنيا زمن محدد يضطرب فيه البشر ، ولا يحس الانسان هـذا التخلخل إلا عبر موجودات عاقلة أدركت الخير وعقلته وعرفت الشر ومارسته ، فاذا نقم على الدهر والدنيا ، فانما هي نقمة تستقي اصولها من ذوات ما احاط به مـــن مشاعر الناس حوله ، فهم مرآة نفسه ، فان رأى فيهم من القبح والشر ما حدد بـــه شرور الحياة ، فلأن هذه المرآة لم تكن تريه سوى صورة شوهاء ، او انـــه عمق في نفسه هذا التشويه ونماه فى فكره فرجحت عنده الصورة المنكـرة ـ صورة الحياة والاحياء ، فمباهج الحياة لديه لحظات خـدر مخمور صاح مدرك حتى في اكثر حالات البعد عن التفكير وانشغال النفس باللهو والطرب ، الساعات التي تكون فيها النفس فى عبث منفلت منطلق من حدود المكان والزمان يقول «زيد الطرب لا تظن اخلاف موتك عود » إنه يريد ان يعلو صوت الوتر والغناء على صوت النفس ليخلصه من هذا الاحساس المتعالي المتصاعد فى اعماقه ، فهو تمزق داخـــلي ينزف اسى وعقماً ولا جدوى ، الموت نغمة نشاز تكتنف الحياة وتلقي البشر فى العدم ، هذه اللحظات

الغليون

الممتلئة تحفزه للتفكير باللحظات الفارغة ذات اللون المظلم الكئيب ، واي راحة في ان يطمئن الانسان ويترك فكرة مستريحاً الى دعة متنامية تنير دربه وتسقى في قلبـه عطش التساؤل وماذا بعد ذلك ؟ فاذا تصاعد هذا الصوت المحير مستمداً من لعنات تطارده فى عتمات هذا المنزلق المهلك فماذا تكون الحياة ؟ اليست جحيماً تستعر فى طوايا النفس وتؤجج فيها النار مخلفة وراءها رمـادا ودخاناً اسود كثيفاً ؟ قد تكون هذه اللعنة ليست من صنع يديه وانما هي لعنة لا يد له فيها ولا حيلة في الاخذ بها اخذاً مغايراً وكأنها قدر ألم به وقاده كأعمى ولد ولم ير النور .

طفل يدفع على عادة أهل زمانه ليعمل صانعاً فى صقل « القليون » او «السبلان» جمع « سبيل » وهو طين مفخور يستعمل اداة للتدخين على شـكل انبوب له رأس يحشى بالتبغ قبل ان تمتد السيكارة بين الاصابع لتحرق التبغ فى الشفاه ، ولكنه لم يلتزم بما دفع اليه دفعاً وعاف عمله طفلاً كما دفع اليه طفلاً ، ولم يلتزم بعد ذلك شغلاً او عملاً سوى المقامرة واللصوصية ، فمن علمه سلوك هذا الطريق ؟ ولماذا لم يتخذ هذه المهنة او تلك طريقاً له في الحياة كشأن الناس الآخرين قانعين بالتافه من الامور ان رزق الفلس شكر ، وان اكل اللحم في شهر رأى فيه نعمة لا يعدلها نعمة ، ان احساسه بالظلم والاضطهاد والشعور بالنقص واحسبه وعاه صغيراً فتح عينيه على ليل مظلم تفح فيه الافاعي وتلذعه لسعات العقارب ، انه واقع تحت قهر اجتمـاعي ونفسي متسلط لامهرب له منه ولا معدى لمجاوزته ، يغذيه فراغ قاتل ووحدة موحشة يضطرب من حوله الناس ويشعر بمضطربهم شعور النافر من طباعهم ومن فكرهم واحاديثهم ، ذلك لا مراء يعطيه مجالاً نزاعاً للتفكير والى محاولة تركيب الحياة كمـا

« السـيل »

يشتهي ان تكون خالية من الظلم بعيدة عن الكذب ، مرتكزان بنيت عليهما الحيـاة اصلاً ، فالانسان سلالة قابيل وخطيئة حواء ما تزال تجدد الظلم وتعيد الكـذب ان اختلف الظلم والكذب كيفاً فلم يختلف كماً وحتى في عصر حقوق الانسان وعصر الاقمار المستعبدة للنجوم ، هذه النجوم التي كانت قبلاً بمنجاة من تسلط هذا الانسان وطغيانه وطموحه الأناني المصور بصورة الحضارة .

ان امتداد هذا الاختلال فى حياته لم يزن حياته بميزان متوافق مع نظرات الناس التلقائية للاشياء والاحداث فراح يطرح سؤاله نفسه عـلى الآخرين لا ليجد عندهم جواباً شافياً فما ابعد الجواب ؟ ذلك انه يحمل فى تضاعيفه جهـل الناس واملاق الفكر فى شتى مستوياته به ، وتساؤله نفسه ما فيه من رنة الاسـى والعذاب اغرى الناس به ليغرقوه بسيل من الشتائم ، هذا التناقض في الذات والوجود يصبح لعنة تطارده وتشقيه ، اليس من حقه ان يتساءل اذا كان هذا السؤال مرتبطاً بمصيره كأنسان ؟ افلا تغتفر له خطيئة الوجود ؟ انه لم يخطأ هو نفسه فيما اخطأ فيه الناس فتركهم ولم يحملهم على ما يريد . وان حاول بث افكاره بينهم .

ان الشتيمة تغضب وتثير وهو حساس يغضب للشتيمة تصدر مـن رجل يريد اغضابه بقصد الاثارة ليقول فيه شيئاً ، او من هؤلاء الذين يتصدون له بالسباب والاقذاع في الشتم ازراء به وتحاملا عليه ، وهـو يصبر على الشتم حتى اذا بلغت به سورة الغضب اشدها مسخهم مسخاً واغلظ لهم فى القول اغلاظاً ، لا يتورع فيهـم مثلما لا يتورعون فيه حطا ورمياً بأقذع ما فى قاموس السوق من كلمات ، ولكنه مع ذلك يصور بعضهم تصويراً مضحكا يبالـغ فى جانب من جوانب حياتهم حتى تبدو

متنافرة فتثير من الضحك والسخرية ما يثيره المصور البارع يركب كلماته تركيباً مطوطاً مشوهاً سواء فى ذلك هجاؤه للافراد او هجاؤه للمجتمع ونقد ادعياء الصلاح .

انظر اليه يهجو شخصاً فيبالغ فى الزراية به ، يقول عنه انه مطرود من أهله . فالتجأ الى مخبأ فلا يظهر من مخبئه هذا ، وهو لقذارته وهزاله وبعده عن الحركة تحوم عليه اسراب الذباب وتخر على جسمه ، تأكل من اطراف عيونه وتجرح مناخر انفه ، وهو بعد ذلك كله نائم على الارض عليلاً يجعل من اللبنة وسادة لرأسه . جائع فمن يأتيه بقليل من اللبن ليشرب ؟ والناس من شدة اشفاقهم عليه يقولون من الذي يرسل خبراً لابنه ليسرع اليه وينقذه مما هو فيه ، اما ابنه فعنده شغل آخر ، فهو يقصع القمل فى شواربه الملوثة بخراه ، وانت ترى ما تثيره كلمة « منخره » متعددة المعاني من قذارة ودنس حتى الشعور بالغثيان :

مطرود بالخر ضاوي ما ظهر منخره
واعليه ذبابين شتى حايمه منخره
أكلن طوارف عيونا واجرحن منخره
عل الگاع نايم عليل او سادتا لبنه
وصبح جوعان وين إل ياتينا لبنه
والناس يگلون من يرسل خبر لبنه
وابنا ايگصع گمل بشواربا منخره

كما يهجو آخر فيقول فيه : ان من ربطك لو فك عنك ساجورك ، وهو مايوضع

في عنق الكلب ، وكان لديه اناث الخيل والبقر فانه يأمن عليها من الحيوانات المفترسة اذ تكون انت الحارس الامين لها تصد عنها الاذى وتعلم اصحابها بالنبـاح . ويصفه بأنه جبان يغلق عليه الحجرات في بيته ، وهو يغريه بأن يدع هذه الابواب مفتوحـة ولو ليلة واحدة ، ولكنه اصبح الآن كلب شر ، قاتل الكلاب عزم على قتلـه ولم يره ، وان نباحه سمعه ولم يرجع اليه لانه يخاف على الحجارة لا يرتفع ثمنها فلم يضربه بحجر .

جانيك لو فك ساجورك او عندا حجر
يامن من الهوش وجميع الضواري حجر
تحلف على الحوش ليلا ما تغلگ حجر

چنك چلب صاير هل الوگت ما ولك
چتال الچلاب ناوي چتلتك ما ولك
تنبح عليا ترى لا تظن ما ولك
خوفي عل الحجار تغلى ما ضربتك حجر

او يقول في قوم آخرين رأيت قوماً لم أر فيهم رجلاً نبيلاً جيد السلوك يصافح رجلاً ماراً بهم او يسلم عليه في الطريق ، كلهم جملة رجال مخانيث لهم عيون حمـر مغضبة ، ألسنتهم مرة فلا تعذب ولا تطيب في حديث وحتى لو ذوب فيها السكر فلا تملح ، والشين طبعهم سرى في دمائهم وخلقهم واصبح سنة طبيعية لازمة لهم ،والذي ينزل عندهم لا تظن انه فى انس وراحة ، يولد ولدهم على صورة بشر وانسان وكلما كبر طالت اذانه فاذا استوى رجلا صار حماراً ولا شك انك واجد فيها صـــورة

متحركة مضحكة .

گومن بها ما شفت جيد ايصافح مار
جملة مخانيث بس الها عيون احمار
السانهم لو تملحا ما تملح مار

والشين بيهم سرى بين الخلگ وانسان
انزيلهم لا تظنا بينهم ونسان
يولد ولدهم على صورة بشر وانسان
كلما كبر طالن اذانا او صار حمار

او يقول فيمن يدعي العصمة والتقوى فيتخذ شعار من يوحي للناس بأنه من رجال الله الصالحين فيقول تجنب عن اصحاب المظاهر حتى ولو كان نسبه متصلاً بالرسول عليه السلام فيلف على رأسه شاشاً من قماش اخضر ليدل على نسبه ليبتز اموال الناس البسطاء بدعواه هذه ، او حتى لو كان رجلاً آخر يدعي التصوف والنسك والعبادة وأنه من اصحاب الباطن او من « اهل الخطوة » ، يكون في مكان واذا هو بقدرة قادر يصبح في مكان آخر ، ولو كان هذا محسوباً للحي المسمى « خضر » عليه السلام ، ان جربته تجربة الخبير عرفت فيه الشر والضر مثل الذئب يذوق لحم الغنم فيجد فيه لذة فتغريه شهوة الاكل بالمزيد او مثل القط يذوق لحم الفأر فيصطاده ويأكل منه بلا نصاف ولا يقول يكفي عجزت مما صدت أو أكلت ، تماماً كما يقول الجمل للشوك انت صرت يابساً وذهبت عنك الخضرة . ولكني ارعاك وآكل منك لانك كنت فى يوم ما ناعم الملمس اخضرا .

جنب عن اللاش لو سيد او شاشا خضر
يا چان محسوب للحي المسمى خضر
كلما تمردا او بعد اتمردا شا خضر

چل الذيب لو ضاگ بلحوم الغنم يابس
من ضاگ بالفار ما گال اعجزت يابس
الجمل للشوك گال انتا صرت يابس
لاچن انا ارعاك لجلن چنت ناعس خضر

ويحكى لنا قصة تدل على قدرته على التصوير الفني شعراً يقول : قهوة متطرفة في مدينة الموصل شرقي سوق الجرار متوسطة بين الجسرين تطل على المياه والخضرة النظرة ، ذهبت اليها فوجدت فيها مغني يقرأ ومعه «طنبارة» واحد يدق له والقارىء يقرأ بموجب افكاره ، فرأى ان قراءته لا تساوي لو عرضت على العارفين بالمقام « باره » واحدة فضاقت بينهم روحه ، وليت روحه تصطبر على الدجل الرخيص فقال في نفسه كيف ارضى بهذا واتجرع هذه المرارة ، ورأى لكي لا يسمع هذا الاداء غير الجميل ان يقرأ هو نفسه فيشغل نفسه عن سماع قاري النغم المتهافت ، فبدأ بتحرير المقام وعند بدئه عارضه ابن حماره وقال له ان قراءتك لا لزوم لها هنا فلا تقرأ بهذه الحارة ، فسأله عما اذا كان اداءه للمقام اداء غير منضبط بعبارة واصول ؟ فأجابه اننا نريد الصوت الحسن ولا نريد الاداء الصحيح فرد عليه قائلاً : تفيح منك رائحة جيفة كأنك قد نزحت طهارة ، فقال له : لا انا ولا اهلي فينا من نزح بئرا وانما صنعتنا عمل « الكرك » من فراء الثعالب والواوي فقال له الآن بان

الحق وظهرت انواره ساطعة ، انت « زمال » ـ حصان ترك لانه لا يركض ، والدليل شهود يشهدون عليك مهنتهم بيع الحجارة ، لاي شيء بدلت جلالك وأين ضيعت « الغاره »

گهوه آبطارف الموصل شرجي سوگ لجراره
متوسطا على الجسرين عل المايات نظاره
رحت إلها لگيت ابها فد قاري او طنباره
واحد جاي ايطبراه او يقرا بموجب افكاره
شفت اقرايتا تسوى لو تنباع فد باره
ضاگت بينهم روحي او ليت الروح صباره
گلت اشلون ارضى بذا او اجرع هاي لمراره
آني اقرا ولا اسمع منهم هاي لفشاره
ردت ابدي او عل مبدأ عارضني ابن احماره
گلي موش لك لازم لا تقرا ابهل حاره
گتله ليش مو موزون ط بعباره
گلي احنا انريد الحس شنهو او صول واحراره
گتله اتفيح بك جيفه چنك نازح اطهاره
گلي لا أنا او لا هلي واحد نازح ابياره
صنعتنا انوي اكروك من واوي او صنصاره
گتله اليوم بان الحگ واظهر لاحت انواره

اننا ازمالنا عندي اعليك شهود حجاره
ليش امبدل اجلالك وين امضيع الغاره

فنلاحظ انه حدد مكان المقهى فهي تقع على نهر دجلة بين الجسرين شرقي سوق الجرار الحالي واعتقد انها قهوة البلدية الآن او أحدى المقاهي القريبة منها وهي منتزه بديع ، ولا بد ان قصدها لاستماع الغناء لان بعض المقاهي قبلاً كانت محلات الأنس يعرض فيها بعض الوان الغناء والرقص ويستعاض عن الراقصة بشاب يلبس لباس النساء ويرقص للحاضرين ، فقراءة المقام تقتضي الاداء الصحيح ، وقد عرفناه من قبل ضابطاً للمقام يؤديه اداء صحيحاً ولكنه كما يتبين من سرده وحواره هنا انه ينقصه حسن الصوت ، والناس تريد الصوت الحسن دون الالتفات الى الاداء الصحيح ، فلم يرض بأداء المغني وضاقت نفسه بها بأعتباره عارفاً بأصول النغم فرفع عقيرته بالغناء لكي لا يسمع صوت المغنى وقد بين السبب بأنه لا يصبر على شيء يكرهه ويتمنى لو ملك نفسه وسيطر على مشاعره . والطبع غلاب كما يقولون او على حد المثل الشعبي « طبع الذي في البدن لا يغيره الا الكفن » فافاض على عادته في المشاكسة ، فالقارىء يقرأ وهو نفسه يتولى البدء فى القراءة فاي مشهد مضحك ، ولا شك في انه تعمد اثارة مشكلة ودفعته غريزة المخاصمة والمقاتلة في جر من في المقهى الى خصومته فانبرى احدهم محاولاً اسكاته فانهال عليه نقداً وتجريحاً فظاً وكأن هذا هو القارىء فقال له : تفوح منك رائحة من نزح مرحاضاً فبرر هذا له اهله ومهنته بأنه يصنع « الكرك » و « الكرك » مهنة انقرضت وهي صناعة خياطة فرو الثعالب والواوي ويسمى الفرو هذا « بالصنصار » ويخاط الكرك بدقة فيكون الفرو من

الداخل او الخارج حسب رغبة من يرتديه ، وتكون بطانته من قماش جيد يلبس فى الشتاء ويقوم مقام المعطف الآن ولا يرتديه الا من كان حاله رفهاً من رجال ونساء .

ولكي يمعن في نقده وتجريحه فقال له علمت الآن من انت ، فانت حمار و « الحجارة » بالتشديد يشهدون عليك « والحجارة من الحجر مهنة كانت شائعة ايضاً لمن كان يصنع الجص ويبيع الحجارة من مقالعها لاغراض البناء . ولما كانت هذه المهنة تحتاج الى وسائط النقل فكان الحجارة يعتنون بالحمر ويرتبطونها لنقل الجص والحجر « بالغرائر » او « بالغارة » وهي عبارة عن خرجين متعادلين يوضع فيهما الجص والحجر على ظهور الحمير . ولما اشهد عليه الشهود بأنه حمار سأله لماذا بدل جلاله ؟ واين ضيع « الغاره » .

وذات يوم جاء الى مقهى القزازين وجلس قرب يهودي وما هي الا دقائق حتى نهض اليهودي وابتعد عنه ، ويظهر انه كان يعرفه فقال له : ابو ساسون اريد ان اغني لك هذه الاغنية ، فنظم على الفور بلهجة اليهود الذين كانوا قاطنين فى الموصل قبل رحيلهم ما يلي :

ابو ساسون وين اتغوح ما تقلي
دتمشى او تنحغم عيد المظلي
مشي او جاب المكينس على بيتو
او وحدى ما عطا إل كل المحلي
بالله بالخام لفلفوه
وادفنوه جنب ميتين ابوه
او غشوا فوق قبغو اقشوغ باقلي

أي ابا ساسون أين تروح ؟ هلا قلت لي ؟ انك سوف تموت محروماً من عيد المظلة عيد اليهود في بدء الخريف ـ فاذا مشى ـ مات ، فسيكون هذا فاتحة شؤم على اهل بيته جميعاً ، والمكنسة كناية بأنه سيكنس أهله فيموتوا ، فحبذا لو اعطى لاهل محلته واحدة منها ، يقول بالله لفوه بالخام وادفنوه بجانب الميتين آبائه ، وعندما يوارى التراب رشو فوق قبره قشور الباقلاء بدل الزهور .

وقد قلت بأنه زار سجوناً كثيرة ولكن سجن كركوك كان اشد السجون ايذاء له ، والمفروض انه قد عرف حياة السجن والمشاق التي يعانيها السجين ، فلم يعش حياة ترف ودعة ولكن سجن كركوك يختلف في مزاياه عن سجون البلاد الاخرى .

فصور حاله في هذا السجن مافيه من ظلام وقمل ووصف أخلاق السجانين وغلظتهم وقسوتهم فيقول ان سجن كركوك بابه مزوراً عن الشمس فلا تزوره الشمس ولا تراه ، والقمل يملأ حيطانه وقاعه ، والبراغيث فيه تنفذ من الدرع والترس ، و « التخته بيت » نوع من الحشرات القارضة تضج بزواياه فمن يدخله يذوق مرارة الموت ، ومن رآه يزيد به الحزن والهم ويصبح ضجراً برماً ضيق الصدر ، اما السجانين فكل واحد منهم يشبه الآخر بسلوكه السيء ووقاحته ، والذي اعتقده انه صور ما رآه تصويراً صادقاً فعرفنا حالة السجن والسجانين .

حبس البكركوك بابا اعن الشمس بالترس
والكمل تارس حياطينا او گاعا ترس
بيه البراغيث تمضي امن الدرع والترس

والتخته بيت ابزواياه اتشوفا يضج
اللي ايطبا امرار الموت لازم يضج
شوفا ايزيد الحسن والخلگ منا يضج
والنوبچيا ابها ياهو التلزما ترس

ان هجاءه كما اوضحت كان ينبع من صميم ما يحسه من اثارة نفسية فيقدح فيه شرر الحقد والغضب فيصبه هجاء بالغ السخرية وسباباً سوقياً حيناً آخر على حسب مقتضيات الاحوال وقد ضربت صفحاً عن كل هجاء ذكر فيه اسماء اشخاص .

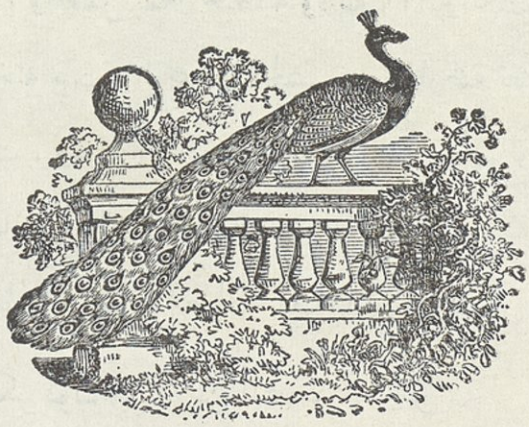

الفخـــر :

بماذا يفخر عبو ؟ ثمة سؤال يجب طرحه فعنعنات الموصل عنعنات كانت ومـا تزال ذات طابع عشائري او عائلي ، فما تزال الدية تجبى ممن ينتمي الى عشيرة معينة وتدفع الدية الى عشيرة القتيل ، وقد خفت هذه العنعنات العشائرية ثـــم عادت وظهرت من جديد بالرغم من ان البشر فى العالم يعيش القرن العشرين بكل ما فيـه من حضارة وعلم ، وان الاسلام شجب التعصب القبلي المقيت ، وهذه الدعوى الجاهلية ، وبالرغم من ان الاسلام اممي لا يفرق بين الاجناس والالوان ، ولا يقر التعصب القبلي ولا يتخذها في احلك الظروف السياسية سياسة له فهذا عمر بن الخطاب (١) الخليفة المسلم ذو العقل الراجح والخلق القويم يقتل عـــلى يد فارسي مجوسي فيقول وهو يستقبل الآخرة ويغادر الدنيا « لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته عليكم » ومعروف ان سالماً هوعبد اسلم وكان من صحابة الرسول عليه السلام اذن ما تزال الجذور ورواسب الايام الجاهلية تعيد نفسها من آن لآخر تبعاً للظروف السياسية ونتيجة لتخلخل السكان والهجرات الواسعة النطاق مـــن الاقوام العربية

(١) وسالم مولى ابي حذيفة لم يكن قرشياً بل لم يكن له نسب في العرب وانما جلب صبياً من اصطخر فاعتقته امرأة من الانصار كانت تملكه ، وتولى هو ولاء ابي حذيفة من قريش ، وكان المسلمون يقدمونه في امور دينهم ايام النبي ، فهـــو كان يؤم المهاجرين في الصلاة وفيهم عمر اثناء انتظارهم لمقدم النبي على المدينة ، وقد قتل باليمامة في حرب الردة في خلافة ابي بكر ، فقد كان عمر اذن يود لو استخلف على المسلمين رجلا ليس من قريش بل ليس من العرب الا بالولاء لا يرى بذلك بأساً ، وكان عمر مصيباً في مذهبه هذا موافقاً لاصول الاسلام الذي لا يفضل احدا على احد بالنسب والمولد ، انما يفاضل الناس بالكفاية والتقوى وحسن البلاء وكان سالم تقياً كافياً حسن البلاء .
الفتنة الكبرى ـ عثمان ص ٣٧ تأليف طه حسين

والكردية على حد سواء ، ان امتداد المدينة واتساعها يفرض ذوبان هؤلاء النازحين ذوباناً تاماً في حياتها . والنازحون اذ يفدون ينقلون معهم تراثهم الفكري وحصيلة تجاربهم المعاشية بلهجاتهم وتبقى عنعناتهم تعمل في انفسهم ولا تستطيع المدينة بما فيها من عوامل الصهر والاذابة ان تلغي الروح القبلية ، ولذلك تبدو ظاهرة التجمع للنازحين من قبيلة واحدة في محلة مستقلة يظل حافزاً اصيلاً للذود عن الجماعة الجديدة ضد السكان الاخرين ، حتى اذا استقر بهم المقام تماماً واتيح لهم الاندماج الكامل تبقى الرواسب القديمة تطفو وترسب بين حين وآخر ، كما ظل الثأر هو السيد واغلبية المهاجرين الى المدينة هم من الاعراب ويبدو بأن سيطرة الاعراب على المدينة بتوالي الهجرات يعزز ما كان يقال قبلا « بغداد غريق واسطنبول حريق والموصل تاخذها عرب » اشارات ذات دلالة عميقة الى هذه الهجرات المتعاقبة على الموصل والتي لا تقف عند حد ، ولما كانت بغداد واطئة يهددها نهر دجلة فقد رأوا انها تذهب غرقاً ، اما اسطنبول فتتخذ بيوتها من الخشب وتشب فيها الحرائق فقد استنتجوا من الحرائق المتكررة ان نهايتها تكون حريقاً لا يبقي فيها على شيء .

ومن عنعنات الموصل اضافة الى النعرات العشائرية هذه العنعنات الاخرى تتركز حول مراكز العوائل وتصنيفها وترتيبها حتى بالنسبة للزواج يقولون عمن يتزوج من عائلة توازي عائلته من حيث النسب والاصل والمال « الحمل عدال » اي هم يشبهون هذا التوازن العائلي بالحمل يوضع على ظهر البعير او الحمار فيجب ان يكون متوازناً ليستقر على ظهر البعير او الحمار ليسير به مطمئناً ، وما لم يكن الحمل متعادلاً فمصيره السقوط ، ولكن العصر يسرع اسراعاً كبيرا في تقويض القيم وتبديل

احوال الناس ، ولكي تبقى هذه القيم وكأنها ثابتة لا تتغير فهم يبررون الجيد والردىء مما تنبته الارحام فيقولون « من الشوك يطلع ورد ومن الورد يطلع شوك» فأين يقف فخر عبو من هذه العنعنات ؟ لا اجد عبو يفخر بأصل او نسب عال واراه غير عابىء بالاصل والنسب على عادة العرب في تأصيل الانساب والفخر بالآباء والاجداد ، وهو ينظر الى النسب والحسب نظرة تختلف عن وجهة نظر مجتمعه ، فهو لا يرى فى النسب مدعاة فخر او محلاً لمباهاة ، فمرجع النسب في الاصل يعود الى رجل وامرأة انجبا هذه الشعوب والقبائل ، فاذا افتخر رجل ما بأصله ونسبه فانما هو فخر فى غير محله ، وانما يكون الفخر بما يملك من قدرة علمية او فكرية وبما يستطيع ان يخط في سفر الحياة من ناجز العمل وما يترك وراءه من نافع القول، وتحس هذا التحول يجري على السنة الناس قبلاً مصوراً بمرارة وسخرية في آن واحد . فهذه امرأة تناجي صاحبتها المستكينة العاجزة مشيرة الى تغير الزمن وصيرورته الدائبة فتقول لها :

لقلق عليكي خري　　او لقلق عليكي بال
ابن الطويلي قصغ　　وابن القصيغا طال

فأي مرارة في ان يطول ابن القصيرة ويكبر فى اعين الناس وان يقصر ابن الطويلة فينساه الناس ولا يأبهون له بينما اللقلق يزرق عليها ويبول وهي لا تدري ؟

ان عبو يدرك ادراكا عميقاً ومن وجهة نظر مدنية صرفة هذا التحول الزمني ويشعر بتبدله ويرى ان الذي يعطي النسب حياة ونبضاً هو المال ، فالمال يرفع من لا نسب له ويعطيه حياة جديدة فيها كل مقومات الصولة والسلطان ، فاذا تم له ذلك

بحث عن النسب ليدعم مركزه ويشدمن ازره تجاه الوسط الذي يعيش فيه وعنعناته، واذا كان المال لا يبقى فى يد الا لينتقل الى يد اخرى فلأن الدهر كل يوم يهجم قصراً عامراً ويرفع كوخاً حقيراً فعليه يكون النسب آخر ما يفكر به عبو فهو يقول : ان عزة الانسان وزينة حياته في الدنيا هو ما يملك من مال وفي حالة السوم لا يقوم الانسان إلا بما يملك ، ويا ويل من يفقد المال ويعتمد النسب ، اذ يطلب المال من ذا وذا من الاقارب ، فيبيت وفكره مشغول بما اسدوه له من منة وفضل فهو يفضل الاباعد اذا رأى منهم اسداء لجميل ويرفض الاهل إن لم ينفعوه

عزك وزينة حياتك بالدهر مالك
وبحالة السوم تسوى اش ما چنت مالك
لو شان حالك يا ويلك بنسبك مالك

وتنشدك عل الگرايب ذا وذا منهم
اتبات بفكار چنك صابتك منهم
والف للاجناب لو صابك ربح منهم
وارفض هلك لو شفت منهم نفع مالك

اذن بماذا يفتخر عبو ؟ ان افتخاره ابداً بقوته البدنية وبجرأته ، وقوته على قول الصدق ، هذه القوة و'لجرأة لا يستعملها إلا في اعانة المظلوم ودفع الظلم ما استطاع وبأنه لا يخون جاره ولا يرضى بأستمرار الظلم والباطل يراه ولا يعمل على تغييره غير مستتر عليه ولا خائف من خوض غمرات الكفاح ضد الظالمين يقول : اني ما عاونت على الضلال ولا خنت جاري ، فهو يعاون ابدا من كان على حق ولا يرضى

بالباطل يجري بين الناس معرضاً نفسه للاذى جراء مواقفه هذه. والدهر ابداً يتصدى له يؤذيه ويؤلمه ، نفسه عزيزة ذات كبرياء لاتذل لمخلوق ، ولا يرضى بغير عزة النفس بديلاً ، ولو كان عطشاناً فلا يرد من بئر الرجل العفن اللئيم وان احتاج الى مال فلا يأخذ اي عطية من نذل ولو صار كفه نهراً يجري بالعطايا .

ما عاونت عل الضلال او لا خنت جاري
اعاون على الحگ او ما ارضى البطل جاري
كلما تآذيت اعليا الدهر جاري

نفسي عزيزا او عن عزة النفس ما ارد
وان چنت عطشان من بير العفن ما ارد
وان صرت بالحوج عطوى من نذل ما ارد
لو چان چفا نهر او من العطا جاري

وهو يفخر ايضاً بعمره قضاه يمارس من الايام اصعبها ومن المشاكل اقساها فهو في معمعة المعارك ابداً ، ومن جور هذه الايام الصعاب اعتل وكانت علته بأم رأسه . اما الانذال فيقضون حياتهم هينة لينة يقولون « بلى » بايماءة رأس، ولو كان الامر الموكل اليهم سيئاً ، ومع ذلك فان ثقته بنفسه لا حدود لها فهو يخوض الشدائد مؤمناً بطاقته النفسية وقدرته البدنية بما يذلل معها الصعاب ويقتحم الاهوال ويخرج من هذه الدروب الضيقة ظافراً منتصراً ، وهو لا يعتدي الا على اولئك الذين يعتدون عليه فيطرق ابوابهم ويقتص منهم وجها لوجه غير خائف ولا وجل ، وهو قد مخض الناس مخض اللبن فوجد ان واحدا بالألف من الناس يمكن تسميته بأنه لبيب فطن

يستطيع النطق والتصرف المعقول ، اما الباقي فهم كالحمير المربوطة بحبال

گظيت عمري مع الايام الصعاب امراس
من جورهن اعتلتني علتن بامراس
واتلوم الانذال من گالو بلى بامراس

حنا الوثيچين وعلى كل شدا نطج
وبواب كل من تعدى علينا نطج
الناس من الفهم واحد لبيب اونطج
والباجيه چل حمير امربطا بامراس

فالفخر عنده اذن يدور حول امرين اثنين : القوة يستخدمها في مقاومة الظلم وايقاف الظالمين عند حدهم ، وبالقابلية الفكرية التي يرى انه لا يتمتع بها سوى عدد قليل من الناس بالألف واحدا وباقي الناس مثل الحمير المربوطة بحبال ، ولا يعدو فخره هذين الامرين مع ثالث يترتب على مقاومة الظلم الا وهو الخلق الذي الذي لا يتسم بالخيانة لمن يستجير به ، وبعزة النفس التي تأبى الضيم ، وبالصدق في الحديث .

هواياتـــه :

بينت ألواناً شتى من حياته وحياة مجتمعه . فبماذا كان يزجى اوقات فراغـــه ؟ وحياته ان سارت مليئة بالمقامرة واللصوصية بأعتبار هذين عملين اصيلين من اعماله، وسما حياته بميسم واضح ، وخطا على وجهه وجسده خطوطاً عريضة مـن التشويه ، وطبعا حياته بطابع العنف والقسوة ، ليقضي بعض حياتـه نزيل السجون تأكلـه البراغيث ويلسعه القمل ، ويلاقي من عنت السجانين واخلاقهم الوقحة ما يلاقي ، نراه يأنس بالطيور ويرى فيها ملهاة ومزجاة للوقت ، والطيور وتربيتها والانس بها يرجع الى زمن موغل فى القدم ، الا ان بعض الناس فى الموصل كان يعتقد ان بعضها يذكر الله ذكرا واضحا وبخاصة هذا النوع الذي يطلق عليه اسم (يا كريم) يتصورون انه يذكر الله بهذا الاسم عندما تزقو فى الصباح او قبل المغيب وفى اطراف الليل ، فكان الابقاء عليها في البيت فى بعض الابراج التي تخصص لهذا الغرض اثناء البنـــاء او ما كان يطلق عليه اسم (العلية) ما يذكر اهل الدار بزيادة التسبيح والذكر ، على ان هواة الطيور يلاقون نقداً كبيرا اذا خرجت هذه الهواية عن القصد وبلغت حد الشغف بها والاكثار من تدجين الاجناس التي لا تمتاز بما قدمت اذ تنقلب هذه الهواية الى مصدر ازعاج للجيران ، فكثيراً ما يصعد الهواة الى السطح وبأيديهم عصى طويلة تلف في رأسها خرقة طويلة ايضاً فتصبح وكأنها علم يزجر بها الطير لتحلق في الفضاء ولتعتاد الطيران فى الجو ساعات طويلة، وباصطلاح هواة الطير، ان الطير المحلق اذا طال طيرانه يقال له بأنه « يسكر » اي يغيب عن الوجود من شدة حبه للفضاء والسباحة فيه ،ووجه المنافسة بين الهواة تكون فيمن يملك طيورا من اجناس متعددة تستطيع التحليق في

الفضاء ساعات طوالاً ثم تعود الى اوكارها بعد هذا الطيران الطويل ، وكثيراً ما يحلف هؤلاء ايماناً كاذبة بأن الطير الفلاني حلق ثماني ساعات بينما حلق في الواقع ساعة واحدة ، كما يتخذون من السطح وسيلة للتطلع على الجيران ، وكلمة « كش » كلمة زجر للطير او كلمة « ياع » كلمة نداء تصبح صورة مزعجة ومضحكة في آن واحد فيما يكون العلم مرنحاً ذات اليمين وذات الشمال بيد صاحب الطير ، الا ان عبو يصرح بأنه يحب الطيور ويرى فى النظر اليهم متعة كبيرة وبذكرهم يترك غيبة الناس ، وهو لا يجد فرقاً كبيراً فيمن يربي الطيور الجميلة الاصيلة او فيمن يربي الخيل الجياد ذات الاصل والنسب . فهذا طير له عذبة مدلاة غريب الجنس والشكل، الوانهم زاهية مثل الوان الورود وكانها ظهرت من الجنان ، فما اكثر ما قضى بصفاء رؤيتهم الظهر والعصر ومن يلومه في هذه الهواية فهو حمار .

حنا نود الطيور ونشوف ونسابهن
وبذچرهن نترچ الغيبات ونسابهن
اوصافهن چل جياد الخيل ونسابهن
امعذبات غريبات الجنس واظهور
الوانهن چل الورد امن الجنان اظهور
ياما گضينا ابصفاهن عصرها واظهور
واللامنا ابهن شبه ازمال ونسابهن

على ان التبرير الذي قدمه والشيمة التي اخرها ترينا ما كان يلاقيه من نقد

المجتمع لهذه الهواية ، على ان عبو لم يكن له بيت او سطح يصعد اليه وانما كان يربي هذه الطيور فى دكان فى محلة السوق الصغير ، وهي بيته وداره ، على اننا نلاحظ الآن فى حدائق الدور المشيدة حديثاً ابراج الطيور وكأنها من متممات الزهر فهل يلام عبـــو ؟

الروضـــة :

نظم عبو كثيراً من الموالات ، ولا اشك في ان ما بأيدينا منها قليل جدا ، ذلك انه كان امياً لا يعرف القراءة والكتابة فكان يعتمد على ذاكرته في حفظ ما ينظم وكان يستعين على تدوينها بهؤلاء الذين يعرفون القراءة والكتابة ، ولا ريب فى انه فقد اكثر ما نظمه نتيجة عدم معرفته القراءة والكتابة ، واعتماده على الرواة فى نشر موالاته ، وقد مات كلهم ، اضف الى ذلك قلة اهتمام الناس بعد انتشار التعليم بهذا اللون من الادب الشعبي والنظر اليه نظرة احتقار ، وكأنه ينم عن جهل من يحفل به او يروى منه ، وقد نسي هذا الجيل في خضم السينما والتلفزيون ما كان يعني به الجيل الماضي وما كان يعتبره لوناً قيماً من ألوان هذا الفن .

وليس من شك فى ان الموصل اختفى فيها هذا اللون من الفن الشعبي ليعيش في بغداد والجنوب مدة اطول ، ولهذا فاني اعتقد ان كثيراً من موالاته نسبت لاشخاص آخرين . وقد يكونون في بغداد او الجنوب ذلك ان تدوين هذا اللون لم يأخذ طريقه الى التسجيل الا فى وقت متأخر .

ومن مجموع الموالات المدونة لعبو مجموعة تعد تسعة وعشرين موالا مرتبة حسب حروف الهجاء التزم فيها لزوم ما لا يلزم تعبيراً عن قدرته الفائقة وتمكنه من استعمال اللهجة الدارجة ، هذا الالتزام هو ان يبدأ بنظم المـــوال حسب الحروف الهجائية العربية يبدأ بالحرف وينتهي بالقافية بالحرف نفسه وســماها « بالروضة » وهو فيها ظاهر التكلف يدفعه الالتزام الى تصيد الكلمـــة الغريبة غير المأنوسة الا في القليل من هذه الروضة اذ كان بارعاً فيه ومعبراً تعبيراً اصيلاً عن خلجات نفسه فجاء

مسلسلاً رقيقاً ، وقد استشهدنا من قبل بموالين اقتضاهما سياق الكلام هما :

كار الدهر لا يغرك بالبسم واضحاك
كادك او نغص عيوشك عشيتك واضحاك
كافر يفوگ العوامل والوشج واضحاك

كاشر نياب الغدر باد الجواد او هلك
كف الامل من مودة من جفاك او هلك
كرب حزومك او لا تامن صحيب او هلك

كلمن ظفر بيك جرك للذبح واضحاك

فهو يبدأ بحرف الكاف وينتهي به ، او مثل :

حامت عليا ملمات الزمان او راح
حت العگل ما بگالي من جنان او راح
حبلي نحل چيف عاد اوجد سرور او راح

حالي تردى بعد هيهات ابرا وصح
حاير ولا ادري سعودي وين ولا وصح
حتى الچبد والحلگ مني تمرر وصح

حيث الهموم اخمدتني بالنياب او راح

فهو يبدأ بحرف الحاء وينتهي به .

وقد ضربت صفحاً عنها لما فيها من تعقيد وتكلف الا انني وقفت طويلاً عن سبب تسميتها بالروضة فسألت العارفين بزجله او ممن سمع منه فلم اجد جواباً شافياً

وبعد التقصي وجدت نصاً في مقدمة ديوان صفي الدين الحلي (١) المطبوع في النجف سنة ١٩٥٦ من ان صفي الدين الحلي له مؤلفات وآثار في الادب كثيرة منها قصائده التي سماها « درر النحور في مدائح الملك المنصور » وهو نجم الدين غازي بن قره ارسلان احد الملوك الارتقيه في ماردين وديار بكر واتصل بعده بأبنه الملك الصالح شمس الدين ثم ذهب الى الحج وعرج منه على مصر وقصائده الارتقيات المذكورة وهي تسعة وعشرون قصيدة على عدد حروف الهجاء محبوكة الطرفين ، حروف اوائل ابياتها كحروف رويها فالقصيدة الهمزية مثلاً يبدأ في كل منها بالهمزة ويختم بها وهكذا الى آخر الحروف وتسمى باصطلاح المتأخرين « بالروضة » وقد وازن تلك القصائد الارتقية وعارضها جماعة من الاواخر في مواضع شتى منهم محمد افندي الغلامي من شعراء الموصل في القرن الثاني عشر ا هـ .

ولا شك ان الشاعر الموصلي محمد افندي الغلامي في ذهابه في النظم هذا المذهب روج للنظم على غرار ما نظم صفي الدين الحلي وسماها بالروضة فانتقلت هذه التسمية وهذه الطريقة في النظم الى شعراء العامية وسموها بهذا الاسم دون معرفة بالأصل على عادة شعراء العامية في تقليد شعراء الفصحى .

(١) ولد صفي الدين الحلي في مدينة الحلة سنة ٦٧٧ هـ ونشأ بها وتوفي ببغداد سنة ٧٥٠ هـ انظر ديوانه الملمع اليه .

وفاة عبو المحمد علي

كما بدأ عبو حياته متشرداً وحيداً قضى اواخر حياته فى دارة العجـزة ومـات وحيداً دون اهل او ولد يبكيهوذلك في صباح الثالث من شهر حزيران سنة ١٩٥٩م عن سبعة وتسعين سنة تقريباً فتكون ولادته على وجه التقريب سنة ١٨٦٢ م ودفـن في احدى مقابر السبيل التابعة للبلدية وبموته انتهى فن الموال الذي كان مزدهراً في مدينة الموصل والذي كان له رواته وانصاره ، وكاد ان ينسى بموته ،

ولا بد لي ان اشير الى ان كثيراً ممن عرف عبو كان يزوره فى دار العجزة اذكر منهم الاستاذ محمد القبانچي علم الغناء العراقي في فن المقام كمـا ان عبو المحمد علي كان يزور في بغداد الشاعر الشعبي ملا عبود الكرخي كلما عن له فسافر الى بغداد .

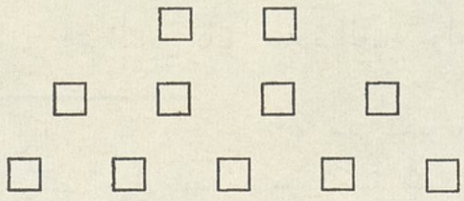

ما هي اغراض الموال ؟

إن فن الموال (١) ابتكر في العراق وكان نظمه على وزن البحر البسيط حيث جعلوا الاشطار الاربعة على قافية واحدة واستخدموا فيه اللغة الفصحى وسموا المقطوعة منه صوتاً ، مما يشير الى الصلة بين هذا الفن والغناء ، ثم انتشر هذا الفن بين عمال اهل واسط واتخذوا منه ما اتخذه العرب من الرجز ، شعر العمل والكد، فتغنى به المشرفون على عمارة بساتينهم ، والفعلة والبناؤون والمزارعون ، وقيل انهم كانوا يقولون في ختام كل صوت منها يا مواليا اشارة الى سادتهم ومواليهم فغلب عليه هذا الاسم الذي عرف به .

ويذهب بعض الدارسين الى أن اول من ابتكر الموال احدى جواري البرامكة فقد قيل ان الخليفة هارون الرشيد لما نكب البرامكة حظر ان يذكرهم احد ، ولكن جارية كانت لهم تقف بقصورهم المهدمة وترثيهم بشعر عامي اللغة تختمه بقولها يا مواليه ومن هنا جاء الاسم (٢) .

ولا شك في ان الموالي هم الذين كانوا سادة الغناء واساطين الطرب في عصور

---

(١) وللمواليا وزن واحد واربع قواف منها واحدة اخترعها صفي الدين الحلي وقد حمله المتأخرون محاسن البديع كما فعلوا بالدوبيت وحرف المصريون هذه الكلمة بكلمة « موال » واهل الصعيد منهم اشهر الناس بهذه المواويل ويقسمون الموال الى نوعين : احمر وهو الذي ينظم في الحماسة والحرب والحكمة . واخضر وهو ما دخل في الغزل والنسيب وما اليهما من الانواع الرقيقة ، وقد يجعلونه مخمساً ومسبعاً ويسمى بالنعماني .

ص ١٧٦ آداب العرب ج٣ الرافعي

(٢) الشعر الشعبي العربي ص ١١٥ للدكتور حسين نصار

الدولة الاسلامية وانهم طوروا الغناء العربي بما نقلوه من اغاني الفرس والحـــان الاقوام الذين ينتمون اليهم من روم وزنج وهنود ، ولذلك كان الموال فنهم وبه تسمى، ومما يعزز هذا ان كلمة موال مازالت مستعملة فى الغناء حتى الوقت الحاضر من كلمة « موليا » اثناء الغناء ويسمى بالموال البغدادي يغنيه السوريون .

موال يابو زلف عيني يا موليـا
انياط قلبي انقطع من نظرة عينيـا

او الاغنية العراقية الشعبية :

يا عين موليتي يا عين موليـا
درب الحويجه گطب عمل ابرجليا

ثم تطور واستقر النظم فيه على سبعة اشطر تتحـد قوافى كل ثلاثة اشطر باللفظ وتختلف بالمعنى ، اما الشطر السابع فيرجع الى الثلاثة الاولى بوحدة اللفظ واختلاف المعنى ويسمى « بالنعماني » وقد تفشى استعمال هذا اللون حتى استمر طيلة القرون الثلاثة الاخيرة (١) .

وقد اصطلح اهل بغداد ومدن شمالي العراق على تسمية الموال بالزهـــيري (٢) نسبة الى رجل اشتهر في بغداد بحسن نظمه وغنائه له يسمى « ملا جادر الزهيري » ومن نظمه اي الملا جادر هذا :

---

(١) ص ٢٧ فنون الادب الشعبي — علي الخاقاني
(٢) ص ٣١٤ الطرب عند العرب — عبد الكريم العلاف

امعاون الود تظهر من معاديني
واحكوك الاصحاب او فيها معاديني
والصاحب اللي گرن دينه معاديني

من غيمة الريب جوي لم يزل صاحبي
واللي شرب كاس خمر امودتي صاحبي
اكره صحيب الذي يحچي گفا صاحبي
واللي يعادي صحيبي هو معاديني

على اني اشك فى ان تكون هذه التسمية منسوبة الى هذا الرجل ، ولماذا يشتهر هذا اللون من الفن باسمه وقد كان معروفاً قبل ان يكون بقرون طويلة ؟ لقد سألت من هؤلاء العارفين « بالزهيري » عن سبب تسمية الموال « بالزهيري » فقالوا : لانه « ازهر الشعر » اي احسنه واجوده ،

ان الموال حاجة طبيعية اقتضاه فن الغناء وتطوره ، فلم يكن يطرق قبلا سوى اغراض النفس ما تحسه من لوعة البعد ، ونار الحب ، وتقلبات الدهر من بؤس ونعيم وشقاء وسعادة ، فلما استوى واستقر طرق جميع ابواب الشعر العربية من هجاء وحماسة وغزل ووصف الى ما قدمناه آنفاً من هذه الخلجات الحية تعبيراً عن غرام وصبابة ووله واشتياق ، وبعد وانقطاع ، وتقريع للدهر على فعاله ولومه على مايبدي من خصاله ، والمتتبع لفن الموشح والوانه وتطوره ونشأته فى الاندلس مستجيباً لنداء النفس التي هزها جمال الارض ونضرة الزهر وما يستتبع ذلك من انشراح النفس لها وتفتحه على حب الدنيا والاقبال على نعيمها وما يستدعي هذا التفتح ،

وهذا الاقبال عليها من فيض النفس واحساسها بقصور اللغة عن التعبير عن خلجاتها وفيض اشراقها فيمتد اللحن غنياً بضروب هذا الفيض الذي عجزت اللغة الفصحى عن ادائه .

ومن يتتبع الزجل والموشح الاندلسيين لا يساوره شك في ان الموال يرتبط بوشائج القربى بالموشحات الاندلسية ، واذا كان الموال عراقي المنشأ فان انتقال المغنين المشارقة كزرياب [١] وفتح العرب المشارقة للاندلس كان له الاثر الكبير في نشوء الموشح وتطوره على ايدي العرب الاندلسيين الى ان عاد وظهر الموشح في

---

[١] زرياب هو علي بن نافع ، وزرياب طائر اسود اللون حسن الصوت وسمي به لسمرة كانت فيه . دخل زرياب الى قرطبة في امارة عبد الرحمن بن الحكم [٢٠٦ - ٢٣٨ هـ] وزرياب لم يكن مغنياً حسب بل كان ملحناً قديراً فاق في مضمار الالحان استاذه اسحق الموصلي ، وحين تلقته الاندلس برهن على قدرته في التجديد والتلوين في الانغام .

وقد جعل زرياب للغناء في الاندلس قانوناً خاصاً عدا ما انتحل من مراسيم الزي والمظهر حين جعل المجلس الغنائي يقوم على ثلاثة دورات : الاولى نشيد والثانية بسيط والثالثة هزج ، ومعنى ذلك انه جمع في النوبة الواحدة بين الالقاء غير الموقع والغناء الموقع ثم اعتمد هذا الموقع بقسميه الثقيل والخفيف وعلى طريقة زرياب وتلاحينه ، تخرج ابناءه وبناته وجواريه الذين زاولوا التلحين او الغناء بالاندلس عندئذ حتى لنستطيع ان نقول ان طرائق زرياب ظلت هي المعتمدة في الاندلس حتى ظهور ابن باجه الفيلسوف الذي كان دوره في الموسيقى الاندلسية كدور الفارابي في الموسيقى المشرقية .

انظر كتاب الموشحات الاندلسية تشأتها وتطورها لسليم الحلو

المشرق [١] ناضر العود نابضاً بالحياة ، ولا اشك فى ان اللهجات العربية المتعددة هي الاصل فى ارتكاز فن الغناء منذ زمن بعيد [٢] في القدم ومن قبل الفتح الاسلامي واذا ذهب البعض الى ان الرجز يمكن اعتباره اداة الغناء العربي ، وهو الشعر الشعبي قبلا فاني اتصور فى الذهاب هذا المذهب ما يبعد الشعر الشعبي عن ميدانه

---

[١] اما المشارقة فقد تكفلوا التوشيح وبقي للاندلسيين فضل الطبع لم ينازعهم فيه الا ابن سناه الملك المصري المتوفي سنه ٦٠٨ هـ فقد طارت موشحاته خصوصاً موشحته التي اشتهرت شرقاً وغرباً اولها

ياحبيبي ارفع حجاب النور عن العذار
تنظر المسك على الكافور في جلنار

كللي ، يا سحب تيجان الربى ، بالحلى واجعلي ، سوارها منعطف الجدول

ولا تزال في افواه المغنين الى اليوم .

ص ١٧٠ تاريخ آداب العرب ج٣ الرافعي

[٢] لا نعرف بالتحقيق اصل الشعر العامي ولا منشؤه ، ولكنا لا نشك انه قديم ، وان ظهوره كان في اواخر القرن الاول للهجرة ، بعد ظهور الغناء وانتشاره ، لان طبقات كثيرة من العامة ومن في حكمهم ممن لا ادب لهم ، لا يطربون للغناء في الشعر الفصيح ، وخاصة عامة اهل الشام ولعلهم اصل الشعر العامي في العربية ، لان الفصيح استبحر في بلادهم ، وهم مع ذلك اسقم الناس ألسنة ، فكان لا بد لعامتهم من هذا الشعر ، وقد وقفنا على شيء من شعرهم الذي يطربون له ، من ذلك مارواه صاحب الاغاني في اخبار معبد انه اشخص الى الوليد بن يزيد ، ثم كان في منزل بعض اهل الشام من ذوي الحال الرفيعة ، وقال في وصف غنائه عنده فجعلت لا آتي بحسن الا خرجت الى ما هو احسن منه ، وهو لا يرتاح ولا يحفل بما يرى مني ، فلما طال عليه امري قال يا غلام شيخنا ، شيخنا ، فاتي بشيخ فلما رآه هش اليه فأخذ الشيخ العود ثم اندفع الى الغناء

سلور في القدر ، ويلي علوه جاء القط أكله ، ويلي علوه

والسلور : السمك بلغة اهل الشام ، قال فجعل صاحب المنزل يصفق ويضرب برجله طرباً وسروراً .

ص ١٧٤ تاريخ اداب اللغة ج٣ للرافعي

الا ان يكون ذلك على سبيل الافتراض ، فاذا كانت اللهجات العربية متعددة قبل الاسلام وبعده ، فحري ان يكون الغناء. وهو الصق الاشياء بنفس الانسان ان يكون بلهجته التي يتحدث بها ، فنخلص من ذلك الى ان الموال وجد في العراق وانتشر منه وهاجر الى بلاد الاندلس فامتزج هناك امتزاجاً حياً بالبيئة الاندلسية الغنية بالترف فظهر بشكل موشح وزجل ثم عاد الموشح الى المشرق جديدا يحذو حذوه الشعراء المشارقة حتى كلف به شعراء الفصحى ونسبوا الموشح المشهور وهو لابن زهر الاندلسي وهذا نصه :

ايها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع
وندیم همت فی غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى وسقاني اربعاً فی اربع
غصن بان مال من حيث استوى
بات من يهواه من فرط الجوى
خافق الاحشاء موهون القوى
كلما فكر في البين بكى ماله يبكي لما لم يقع
ليس لي صبر ولا لي جلد
يا لقومي عذلوا واجتهدوا
انكروا شكواي مما اجد

مثل حالي حقه ان يشتكي كمد اليأس وذل الطمع

ما لعيني عشيت بالنظر

انكرت بعدك ضوء القمر

واذا ما شئت فاسمع خبري

شقيت عيناي من طول البكا وبكى بعضي على بعضي معي

كبد حرى ودمع يكف

يعرف الذنب ولا يعترف

ايها المعرض عما اصف

قد نما حبك عندي وزكا لا يظن الحب اني مدعي

نسبوه الى ابن المعتز ، وابن المعتز لم يقل تلك الموشحة الواردة فى ديوانه وانما هي لشاعر اندلسي وشاح هو ابن زهر الحفيد وقد وردت هذه الموشحة منسوبة الى هذا الاندلسي فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل جيش التوشيح لابن الخطيب والمغرب لابن سعيد ، ومعجم البلدان لياقوت ، وطبقات الاطباء لابن ابي اصيبعه ، وهناك شيء آخر لا ينبغي نسبتها لأبن المعتز ، وهو ان نظام تلك الموشحة واسلوبها وروحها موافقة كلها لموشحات اخرى اثرت عن هذا الشاعر الاندلسي . على حين لا يعرف لابن المعتز من الموشحات التي ترجح نسبة هذا النص اليه ، ومما يؤيد ما تقدم ان احداً من الذين كتبوا عن ابن المعتز او ترجموا له لم يذكر انه كان وشاحاً ، واخيرا لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة لشاع عنه في المشرق هذا

الفن ، ولرأينا له ولغيره من شعراء المشرق نماذج من هذا اللون الذى كان يناسب مستحدثاتهم وما يميلون اليه من تجديد ، فنحن لم نر للمشارقة موشحات ، ولم يذكر احد منهم في الوشاحين الا بعد ان اشتهر هذا الفن في الاندلس وكثر اعلامه وذلك بعد نحو ثلاثة قرون من نشأة « الموشحات » (١) .

ولعل عامل التنافس ما بين المشرق والمغرب حدا بهؤلاء الى نسبته لابن المعتز كأنما يريدون بذلك ان يبزوا المغاربة بما ابدعه المشارقة من فن كان وقفاً عليهم من قبـــل .

اذن ان الموشح والزجل انتقلا من الاندلس الى المشرق وتأثر بهما الشعراء المشارقة ، وهذا ابن خلدون يقول في معرض حديثه عن الزجل « واول من ابدع فى هذه الطريقةالزجلية ابو بكر بن قزمان وانكانت قيلت قبلهبالاندلس ولكن لم يظهر حلاها ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها الا فى زمانه وكان لعهد الملثمين وهو امام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيد ورأيت ازجاله مروية ببغداد اكثر مما رأيتها بحواضر المغرب » اذن لم ينتقل الزجل الى بغداد فقط بل كانت حاضرة من حواضره كما يؤكد ذلك ابن خلدون ، والمفروض في الزجل انه يكون مروياً بلهجة قومه ، وما ابعد الاندلس داراً ولهجة عن بغداد ، ولكن بغداد كانت قد استطابت الزجل يأتيها من بعيد ، من داربعيدة ، وبلهجة فيها بعض الغربة عن لهجتهم ،ولكنها محببة اليهم اذ تصاحبها الآلات الموسيقية فتضفي عليها طابـــع الغموض المحبب الى النفس المؤنس لها .

---

(١) ص ١٤٨ الادب الاندلسي تأليف الدكتور احمد هيكل

اريد أن اخلص من ذلك الى شيء طرحته اولا وهو ان تسميته « بالزهيري » انما هو نسبة الى أحد هؤلاء الوشاحين الاندلسيين الكبار تيمناً بما ابدعوه من صناعة القول ، وكما يقول ابن خلدون « وسابق الحلبة التي ادركت هؤلاء ابو بكر بن زهير . وقد شرقت موشحاته وغربت » ولعل شغف الاندلسيين بزهير ، وزهـر وزهراء .

انيِ ذكرتك بالزهراء مشتاقا والروض طلق ووجه الارض قد راقا

كل ذلك يعطي الدلالة ذات الصلة القريبة بتسميته بالزهيري منسوباً الى احد الوشاحين او الزجالين الاندلسيين او باسم المدينة المسماة بهذا الاسم وهي الزهراء بعدما تبين لنا مدى الصلة الوثيقة بين المشرق والمغرب في التأثر والتأثير ، ولهذه الاسباب مجتمعة ارجح ان ما جاء فى كتاب الطرب عند العرب من تسميته بالزهيري نسبة الى ملا جادر الزهيري انما هو تثبيت لحال على وجه من الظن وهي نسبة ليس لها ما يبررها فى الواقع .

ماغنى من المواويل لعبو المحمد علي

لم يغن لعبو المحمد علي من موالاته الشيء الكثير ، والسبب هو ما مر بنا من ان الناس تحاشوه وتحاشوا شعره لما وجدوا فيهمن بعد عن الدين ، ولما كانت تقرأ هذه المواويل في المواليد ومن على المآذن ايام الجمع فلذلك فان ما غنى له يكاد يعد على الاصابع .

هذا اذا علمنا بان الموال لايقرأ فى المقامات الاصلية وانما يقرأ فى شعب المقام كالحكيمي وهو شعبة من شعب السيكاه العراقي والابراهيمي والبهر زاوي والمخالف الموصلي والجبوري والمقابل والراشدي وشرقى الرست ، والمقطع وهو شعبة من الرست ايضاً والمدمي ، والعريبوني .

وقد غنى له السيد اسماعيل الفحام مقريء المقام الموصلي هذا الموال .

كار الدهر لايغرك بالبسم واضحاك

وهو من مقام الحكيمي

وغنى له ايضاً :

ناديت الايام سعدي گوطرن ماجن

---

(١) السيد ذنون احمد عبد الله الكواز عمره ٣٦ سنة شغف بالمقام العراقي وتتلمذ على اساتذة قراء المقام العراقي وبخاصة المشاهير من قراء الموصل امثال سيد احمد وسيد امين وسيد اسماعيل . وكان يسمع الاسطوانات المسجلة على الشوابك القديمة للسيد حسين بن علي الصفو واحمد علي الصفو وملا عثمان الموصلي وجده محمد الذنون الكواز ، اشتغل في احتفالات موالد الرسول عليه السلام وكان من طلائع قراء المقام في الموصل في زمانه مثل حسين علي الصفو واحمد بن علي الصفو يقرأون المقام في المقاهي المشهورة كقهوة الثوب ومقهى باب السراي وكان يعمل كوازا. وتوفي سنة ١٩٢٩ .وقد توفي المترجم له في حادث مؤسف اذ انقلبت سيارة به في طريق بغداد سنة ١٩٦٩ .

وهو من مقام الحديدي

وغنى له ايضاً :

لاتقبل اللاش الك صاحب ثكا لالا

وهو من مقام المخالف الموصلي

كما غنى له السيد ذنون احمد عبد الله الكواز موالا من مقام البهر زاوي هـــذا الموال :

ظبي امن الانس بسـهام اللحظ هدني
بگطاع زيزا رماني امن العزم هدني
ناديت ويلك : ضليل اعن الدرب هدني
ان چنت منصف دخيل اللاذ بك وصلا
وارحم فتى اللي بنـــارك ملتهب وصلا
جيتا ابحجا او حيـــلا وصلتن وصلا
الزمت ايدا زعل گـال اش تبي هدني

وغنى له من مقام الحجاز كار كرد هذا الزهيري :

من صرت لليوم نفسي ما ولت راحات

كما غنى له من مقام المدمي :

عين الندى حين غارت وين ظلماها

على ان غناء الموال المسبع كما هو منتشر فى العراق فهو منتشر ايضا في البلاد العربية وقد انقرض غناؤه او كاد وفي يدي الآن مجموعة اسطوانات اوديون من

مطبوعات النهضة العربية بحلب اجد فيه هذا الموال المسبع المغنى من قبل السيد احمد افندي النقش .

ياربي جسمي خلا والعظم مني بلا
واني اموحد الهي من يوم گالوا بلا
ان غاب ذكرك عن لساني صاب قلبي بلا
يا مالك الملك مالي يا اله ســـواك
جور الليالي دعت جسمي كعود سواك
ان مسني الضر مالي يا الهي سـواك
انت جميل الستر ان حاط بينا البلا

بعض من موالاته :

(١) اجروح بحشاي زاد ابها خزن وندا
آست دليلي اوناشت للچبد وندا
ابجملة الناس شرت اهل البخل وندا
ابعلتي مالگيت الها حكم ودوا
ابها ازعجت الگلم ويا الحبر ودوا
السعد عنى شـــرد بالمگطعا ودوا
اگفا ولا عاد ينفع بو عذل وندا

(٢) ناديت الايام سعدي گوطرن ماجن
ناظن اوهاجن لشدة غيظهن ماجن
نوبات . يجنن يعيلن عل الذي ماجن
نحسات ابدن فلا هن للجواد انصفن
نايم ولا ادري جزت ابهن اهوال انصفن
نكباتهن مع جيوش امن الهموم انصفن
نحوي اوباريت لوغيري حدا ماجن

(٣) يازين حبك سكن بحشاي وشجاني

يومين لو غاب عنى عاد وشجاني

بحواجبك غادروني ابسهم واشجاني

يمچن دعني گصص للناس ترويني

يابس دليلي ان حچيت اوياي ترويني

يمك سحر لو صنع وفنون ترويني

ياشوم انتا اشجيت اطباع وشجاني

(٤) لاتگبل اللاش الك صاحب ثگا لالا

لايلحجك من عذاريب الخنا لالا

لا تامنا لو رفگ لك بالدهر لالا

لايم عليك اهمـوم اوضامرك علا

لا ناش هـدمك بچفا انزعا علا

لو صار بدرن منير ابهل سما علا

لا تتبع خبن يخونك بالعهد لالا

(٥) هب النسيم بسعير اضمايري وشباه

هيجت من حرهن صاعد جبل وشباه

هايم ودور خيالك بالخلگ وشباه

هيهات الك من مثيل ابحينا ونسه

هل چيف بخلان شخصك التهى ونسه

هامت بحسنك رجال شافتك ونسه

هذي اوصافك ذهب ماهي صفر وشباه

(٦) ياطالب العز مالك عل الجهد ماتجد

وتعزز الروح وبها اعلى الخطر ماتجد

النار لو ما توازت على الحطب ماتجد

وبراحتك چيف تطلب من زمانك شان

جرد خيولك اوكدن على خصيمك شان

وان چان گلبك ملول اعن الحرب اوشان

نيل الاماني او عزا ابدنيتك ما تجد

(٧) طبيت كهوى لعنها الله ولبيها

وململه اصفوف كلها انذال ولبيها

چنهم ربو من ثدايا اچلاب ولبيها

شينين معهم فلا عاش النزيل اوباش

گومن مناحيس نذلين الخوال اوباش

هيهات منهم تجد رجلن ضحوك اوباش

الاستاد غدار والصناع والبيها

(٨) كلمن وعضلك اوخش امسامعك وعضا

ياريت مچلوب عرعر جثته وعضا

انچان محتار جابك اعلى الشعر وعضا

اعلم ترى بيك مستهزي اوعزك هوى

والعگل منك شرد برض المهاوى هوى

عاينت نظمك لگيته اجراب ياخذ هوى

مشگوگ لا راس بي ولا جسد وعضا

(٩) چم دوب أردبيك عن درب الخطا واحد
واچلمك چل هجن يابن البهم واحد
ارويك ترجى الضلال اعن الرشد واحد
لك الحدود الذي بيها تجيم اوتبن
واشوف ماشوف عندك من ذكاوة تبن
ازمال مربوط اچلك بالمعالف تبن
اينصحك بالخلگ واليفضحك واحد

(١٠) ظنيت انتا الحياة الياردك يحيى
وآني اململم عجارب تلسعك يحيى
لوچان عندك نجابا ياوفا يحيى
ما چان تگبل حچايا أللاش والفتنه
واهويت كلمن ذكرنا ابشين والفتنه
انسيت ذاك الوداد او ذيچ ولفتنه
وتود من لاثبات ابعشرتا يحيى

(١١) اياك تحزن وبالك عل النفس تجره
واتوالف الهم واعلى ضامرك تجره
خلي الحلم لك عده والصبر تجره
واياك تصفج على ما راح لك راحات
هذي مصيبه او صارت وانگضت راحات
لله سلم امورك دا تجد راحات
واللي چتبها الاله للعبد تجره

المراجع

١ــ كلمات فارسية مستعملة فى عامية الموصل ــ للدكتور داؤد الجلبي

٢ــ المقامات ــ لشعوبي ابراهيم

٣ــ عثمان الموصلي ــ الدكتور عادل البكري

٤ــ رباعيات الخيام ــ تعريب وديع البستاني

٥ــ الفتنة الكبرى ــ طه حسين

٦ــ ديوان صفي الدين الحلي ــ طبعة النجف ١٩٥٦

٧ــ الشعر الشعبي العربي ــ الدكتور حسين نصار

٨ــ تاريخ آداب العرب ــ مصطفى الرافعي

٩ــ فنون الادب الشعبي ــ علي الخاقاني

١٠ــ الطرب عند العرب ــ عبد الكريم العلاف

١١ــ الاغاني ــ لابي الفرج الاصفهاني

١٢ــ الموشحات الاندلسية نشأتها وتطورها ــ سليم الحلو

١٣ــ الادب الاندلسي ــ الدكتور احمد هيكل

١٤ــ مقدمة ابن خلدون ــ ابن خلدون

١٥ــ حكايات الموصل الشعبية ــ احمد الصوفي

١٦ــ تاريخ علماء الموصل ــ احمد محمد المختار

الكتاب تتبع لعادات اهل الموصل من خلال الازجال الشعبية المغناة فى الافراح والاحزان ، ومن خلال رجل مغمور ولكنه مغامر تحاشاه جميع الناس ، رجل ذب عن حياضه وفكره وارجاسه وصور القبح مارأى وما عاش بروح لا تعرف الملق والرياء . ولم يختف وراء براقع الصمت الخجول او وراء كلمات المجاملة تظهر الود وتضم فى ثناياها خبث الطوية وسوء السريرة .

المؤلف

تصميم الغلاف والصور بريشة الفنان بشير طه

ثمن النسخة ٢٥٠ فلسا

مطبعة الجمهورية ٣٠/١٥٠٠/١٩٦٩

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES
0036761966

OCT 2 1974
MAR 7 1978

PJ-7849-.A42-Z75 c.1